

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمان العدد ٢٠ ملياً

الاعتمادات

يتفق عليها مع الإدارة

المجلة

مجلة أسبوعية للثقافة والعلم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المشؤل

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بتارح السلطان حسين

رقم ٨١ - طابدين - القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٦٨٤ « القاهرة في يوم الإثنين ١٤ رمضان سنة ١٣٦٥ - ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

النقد عند العرب

وأسباب ضعفهم فيه

— ٣ —

→→→→→

لا يستقل بالإفادة . وربما مدحوا الاستقلال بين شطري البيت ؛ فقد روى الجاحظ في البيان عن عمرو بن الملاء أن ثلاثة من الرواة اجتمعوا فقال لهم قائل : أي نصف بيت شعر أحكم وأوجز ؟ فقال أحدهم : قول حميد بن ثور : وحسبك داء أن تصح وتسلما . وقال الثاني : بل قول أبي خراش المنذلي :

توكل بالأدنى وإن جلت ما يعنى .

وقال الثالث : بل قول أبي ذؤيب : وإذا رُرد إلى قليل تنقع . فقالوا إنه لا يستغنى بنفسه ، لأن السامع لا يفهم معناه حتى يسمع النصف الأول ، والصواب أن يقال قوله :

والدهر ليس بمعتب من يجزع

وكان من آراء استقلال البيت بمعناه أن كثر التقديم والتأخير في أبيات القصيدة حتى لا تجد قصيدة جاهلية يتفق راويان على ترتيب أبياتها .

والأمر الخامس أن الغلبة كانت للرأي القائل بأن الشعر إنما يكون آراءً وبلاغه بما فيه من تغير الأوضاع وسور المجاز وأنواع البديع ، حتى أن ابن رشد الحفيد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ قال في تلخيص كتاب الشعر لأرسططاليس ما نصه : « والقول (الشعري) إنما يكون مختلفاً أي متغيراً عن القول الحقيقي من حيث توضع فيه الأسماء متوافقة في اللوازم والمقدار ، وبالأسماء القريبة ، وبغير ذلك من أنواع التغير . وقد يستدل على أن القول الشعري هو الشعر أنه إذا غير القول الحقيقي سمي شعراً أو قولاً شعرياً ووجد له قيل الشعر . مثال ذلك قول القائل :

أما الأسباب التي دفعتهم إلى سلوك هذا النهج في نقد الشعر ، فمن السهل تلخيصها في خمسة أمور لا يصعب عليك استنتاجها مما تقدم :

الأمر الأول ما ذكرناه من أن علماء اللغة والنحو لم يروا الفضل في الشعر إلا فيما يمكن الاحتجاج به ، وحسبهم من ذلك البيت والبيتان .

الأمر الثاني — وهو من قبيل الأول — أن علماء البيان والبديع ، ومنهم أكثر النقاد ، كانوا يكتبون بالشرط أو البيت أو البيتين شاهداً على صورة من صور البيان ، أو نوع من أنواع البديع .

الأمر الثالث أن القصيدة العربية بطبيعتها مجموعة من مقطوعات تتفق في الوزن والقافية ، وتختلف في المعنى والفرس . فإذا أخرجت مقطوعة ما من قصيدة وأدخلتها في أخرى تكون من بحرهما ورويها لا تجس بقصصاً في الأولى ولا كلاً في الأخرى . الأمر الرابع أن الشعراء أزموا أنفسهم أن يكون كل بيت من أبيات القصيدة مستقلاً بمعناه من غير ، وجعلوا من عيوب الشعر (التضمين) وهو أن تعلق قافية البيت بما بعده على وجه

الكلام لا تكون بالرونق والأناقة والصنعة وحدها، وإنما تكون مع ذلك بقوة التعبير عما تكنه الضمائر ونحوه الشاعر، وبدقة التصوير لمختلف الطبائع والمواطف والأخلاق والشهوات والصفات حتى ترى صور أصحابها الحقيقيين أو التخيليين تتحرك وتقل وتقول على مقتضى الفرائز الثابتة والفطر الأصلية؛ وبكشف الغطاء عن طبيعة الشخص بكلمة تجرى على لسانه، أو حركة تحدث عن يده، فتكون تلك الكلمة أو الحركة كوميض البرق في الظلام تنير الأفق بفتحة؛ وببراعة الوصف لمناظر الطبيعة وظواهر الكون حتى نحس فيها الحياة والحركة ونذكر ما بينها وبين النفس وانفعالها من اتصال وعلاقة؛ وبشدة التأثير في الأفتدة حتى تستيقظ فيها رواقد الأهواء والمواطف، فتطرب النفس أو تغضب، وتفرح أو تحزن، وترضى أو تسخط، وتحب أو تبغض.

لأن نوابغ الكتاب والشعراء فطنوا أو نهوا إلى ذلك لكان من هم الناقد أن ينظر فوق ما ينظر في الألفاظ والصور إلى تنسيق المعاني وترتيب الأفكار في جملة القصيدة أو الخطبة أو المقالة أو القصة، أو الكلام على العموم سواء أكان شعراً أم كان نثراً؛ لأن سلامة الجزء المنفصل، أو بلاغته البيت المنفرد، لا تدل حتماً على سلامة الكل أو على بلاغة القصيدة.

كذلك كان ينبغي للناقد أن ينظر في الموضوع الذي عالجه الفنان ليرى أبلغ القصد فيما صور، وأصاب الشاكلة فيما رأى، وقارب الحقيقة فيما تخيل. وهل استطاع أن يبعث الحياة الطبيعية الحقيقية في الأشخاص الذين توهمهم ورسمهم. وهل قدر على أن يحرك في قلوبنا أهواء ساكنة، وبشئ في نفوسنا عواطف جديدة، بما أوحاه أو استدعاه أو رواه من الأماني والذكريات والحوادث؟

كذلك كان من عمل الناقد البياني أن يحلل ما ينشأ في نفس القارئ لروائع الكتاب والشعراء من المواطف، وأن يبين كيف يستطيع الكاتب أو الشاعر أن ينشئ هذه المواطف أو يوحىها. ومن ثم كانت المقالات النقدية عند الفرنج عملاً فنياً قائماً بذاته يبيىء أصحابه مقاعد النبوغ والخلود.

وإذا تدبرت وظيفة الناقد من بعض ما ذكرته تبين لك العلاقة بين النقد وعلم النفس، فإن موضوعه تحليل الأحاسيس والمواطف، والبحث عن طبيعة الخلال وما يصدر عنه من الاتصالات والأهواء،

ولما قضينا من معنى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق الطلي الأباطح وإنما صار شعراً لأنه استعمل: أخذنا بأطراف الأحاديث الخ. بدل قوله تحدثنا ومشيئنا.

وكذلك قوله: بعيدة مهوى القُسط، وإنما صار شعراً لأنه استعمل هذا القول بدل قوله: طريفة العنق. وكذلك قول الآخر: يادارُ أين طباؤك الأُمس قد كان لي في إنسها أنس وإنما صار شعراً لأنه أقام الدار مقام الناطق بمخاطبتها، وأبدل لفظ النساء بالطباء، وأتى بمواقفة الإنس والأنس في اللفظ. وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة وجدتها بهذه الحال. وما عدا هذه التغيرات فليس فيه من معنى الشعرية إلا الوزن فقط، والتغيرات تكون بالموازنة والمواقفة والإبدال والتشبيه وبالجملة بإخراج القول غير مخرج المادة، مثل القلب والحذف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب، ومن السلب إلى الإيجاب، وبالجملة من المقابل إلى المقابل.

وما دام الشعر مبنياً على هذه الصور والأشكال، فلا يكون النظر فيه إلا من جهة البيان والبديع، وذلك يقتضى النظر في بعض الآيات وفي بعض أنواع الكلام.

لهذه الأمور الخمسة انحصر النقد البياني عند العرب في جزء واحد من النقد بمناء المام عند الفرنج، وضاعت علوم البلاغة عندهم هذا الضيق الفاحش، فلم تتألف غير آيات وقصر من الكلام المنظوم والنثر السجوع، وأغفلت القصيدة باعتبارها وحدة لا تتفرق، والكتاب باعتباره كلاً لا يتجزأ، ولم تحفل ما ألف والنثر المرسل من الكتب والقصص. وجر ذلك إلى أن الشعراء والكتاب أوغلوا في البديع وتفتنوا في الزخرف، وأهلوا فن القصص فتركوه لأدباء الشعب، ولم يستوا منه إلا بالمقامات لأنها مظهر الصنعة ومحك القدرة، فحرموا بذلك الأدب العربي فنا كانوا هم بسليقتهم أقدر الناس على التوفر له والافتتان فيه.

ومن ذلك يتضح أن فهم الأقدمين الشامل، لحقيقة الفن الشعري والكتابي جر إلى حصر النقد البياني في الصور والأشكال، وهذا الحصر نفسه قد وجه الشعراء والكتاب إلى الاحتفال باللفظ دون المعنى، وبالمصورة قبل الفكرة، ففات أكثرهم أن رومة

عود إلى حديث الانسانية!

[إلى أخى الأستاذ على الطنطاوى]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

—>>>><<<<—

كل ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية الفاسدة الشديدة الفساد الآن تحمل كثيرين على عدم الثقة بالإنسان وسوء الاعتقاد فيه ، فليست قمتك التى أهديتها إلى فى المدد الماضى يا أخى شيئا مذكورا بجوار القصص التى تمثلها الجرائم السياسية الكبرى التى يمرضها شيوخ السياسة على مسرح الأرض ، ولا بجوار الخزاة السامية المجرمة التى تمثلها الصهيونية ، وتنصرها الولايات المتحدة الأمريكية ! — تلك التى كانت أمل العالم قطواها الشيطان فى جناحه الأسود فيما طوى من آمال السلام والخير — وتنضى عنها الامبراطورية البريطانية إغضاه الدليل الضعيف ، وهى التى خرجت منصوره من حرب كادت تودى بها ، أعلنتها ، وكان من أسباب إعلانها لها الانتصار لليهودية المضطهدة على يد النازية !

أجل ، ليست المسألة فى الحكم على الإنسانية بأنها للخير أو للبور مسأله قسوة فرد أو جريئة شخص ، فإن فساد الأفراد وبخاصة فى عصور الانحطاط ، يكون من الكثرة بحيث لا يحميه العادى ولكن هل معنى ذلك أن نستسلم للواقع السئ ونحطم عقائدنا فى الخير والصلاح ونلق سلاح كفاحتنا لها ؟

وقد كانت صيحتى « أومن بالإنسان » فى إبان الحرب الأخيرة ردا لهجوم عنيف على قلبى من موجات التشاؤم والسخط

ولذلك لم يصبح النقد عن التفرغ فنا مستقلا له قواعده ومذاهبه إلا فى القرن التاسع عشر بعد أن ارتقى علم النفس وانتشر وازدهر . ومنذ ذلك الحين تابع رقيه حتى بلغ أوجه وأدرك تمامه ، فأثر فى فنون الأدب أبلغ التأثير ، وعدل فى بعض أنواعها كل التعديل فإذا أضفت إلى الأمور الخمة التى تقدمت ، هذا الأمر السادس وهو جهل القدماء بعلم النفس كما كان يجمله قيرم ، اجتمعت لديك الأسباب التى أدت إلى ضعف النقد عند العرب ، والتأخر التى أحدثت هذا النقص البادى فى تاريخ الأدب

بمصرين والزيات

والتعبرم من ذلك المجتمع الإنسانى الذى اشتعل بالحق والقسوة والكفر بالقيم العليا للحياة الإنسانية فدمر كل شئ ، وكفر بكل شئ . لأنه فارغ الفؤاد من العقائد السامية فى الإنسان وفى الله خالق هذا الإنسان ومكرمه !

وكانت الفكرة التى نسلل الحديث بها فى هذا الموضوع إنعاهى فرار بنفسى وعقائدها السامية فى حياتى الشخصية وحياة النوع الذى أتسبب إليه .

وعندما يطم طوفان الفساد لا تجد النفس ماصما منه إلا باللجوء إلى سخرة الإيمان بتلك القيم العليا التى تعمر الوجود ، ولا تطمن النفس إلى الحياة إلا إذا ظلت لهذه القيم قداستها وهيتها . فإذا رأيت المدن والمابد والشيوخ والأطفال والمعجزة والماهد ، وكل ما قامت عليه الحضارة الإنسانية من القداسات والحرمات تذكى يد الحرب المجنونة الفاجرة ، فلى العذر أن أتمس لنفسى ولبن شاء من الناس أفقا أرى فيه تأويل هذه الظواهر الفاسدة والجرائم المنكرة كى أوفق بين عقائدى الدينية فى إرادة الله بالناس الخير مهما بنا هذا الخير ملفوفا بالشر ، وبين سير الحياة بالأحياء ... وإلا فقد عرضت نفسى لما تعرض له بعض من كتب إلى منذ حين يقول إن الحياة الإنسانية لغير غاية ، وإن الله — تعالى — قد قامت عليه الغاية من خلق هذا النوع فقد خلقهم لمبادته ، فلم يعبدوه منهم إلا الأقل !

على أن كل ما ضاعف فى الناس فعل الشر وسلبهم الاعتقاد فى الخير هو ذلك اليأس من الخير ، وذلك الاعتقاد بأن الشر هو الغالب على الطبع البشرى ، وذئوع هذا الاعتقاد فى هؤلاء المحاربين المصريين ، هو الذى جعلهم يحاربون بروح التدمير وعدم الإبقاء على شئ ، وما دامت الحياة للشر فليخبطوا فيه خبط عشواء على نحو بيت المرى :

وبصير الأقوام مثلى أعمى فهلوفى جندى تصادم !
أحد أمرين لا ثالث لهما : إما أن تؤمن بأن هذا النوع الإنسانى يمكن الإقلال من شره ، وإقامة حياته على مثل الدولة الإسلامية الأولى ، أو على مثل دول سكان الشمال من أوروبا الحالية ، وعندئذ نجد فى أنفسنا التزام على الجهاد والصبر والكفاح فى هذا السبيل حتى نصل أو تقارب بحسب الطاقة وبحسب قوانين الدنيا ... وعندئذ يستمر سير الحضارة والإصلاح مطردا وبظلم

الخرات الإنسانية المعطوبة السلوة التي سقطت وتلوت لضعف
روابطها بفروع الشجرة الإنسانية، ثم يحكم عليه كله لذلك،
فتلك نظرة سطحية جزئية لا تليق بمن يحمل عقله ميزان حكم
على الكون ومرآة رصد لأعاجيبه التي لا تنفذ في حرب الخير
والشر، وعراك الصلاح والفساد، وصراع الموت والحياة،
وقذف الحق على الباطل!

وإني أسأل أخي الطنطاوي: لماذا يفقد ثقته وإيمانه بالإنسانية
لأجل مثل من العقوق يقابله أمثال من البر بالآباء؟ هل جميع
الأبناء مثل هذا الابن المارق؟ ولماذا تألم قلبك من هذا المثل
الشرير؟ أليس لأن قلبك ينكره؟ إذا فني قلوب الناس نوع
خير ينكر الشر ويضربه مثلا، ويكتبه قصة يشنع بها ويسمع
بصاحبها، ويجد في قلوب الناس مدى لألم قلبه، لأن « البر
لا يبلى ». وما دام في الإنسانية خير وشر فلم نياس منها ونزرى
بقيتها؟ لماذا نحرق الحقل كله لتتخلص من الزوان؟!

إن الأولى بنا أن نعتقد أن الإنسانية كحقل من النبات، الأصل
فيه أن ينبت أكثره نباتا حسنا، ويؤتي أكله وثمره إذا تمهدناه
بالسقى والرعاية والحراسة من الآفات والحشرات التي تعطبه
وتفسده وتجعل أكثره ينبت نباتا سيئا. ولا بد أن يكون فيه
المعوج بالطبيعة ولكنه لا يكون الأكثر في المادة.

ولن يفقد الزارع أمله من الزرع إذا ما خان حظه في موسم
من المواسم فيياس ويقول: إن هذا النوع من الزرع ملعون!
ولن أزرعه، إلا إذا كان أحق.

ونحن الذين نعلم أن كل مولود يولد على الفطرة ثم تلحقه
عوامل التربية والبيئة فيتكيف بها ينبت لنا أن تثربص وتوجه
بكل جهود الإصلاح إلى قلوب الطفولة منطقة النمو الإنساني،
ونجتهد أن تنبت نباتا طيبا وعلى الله الباقي!

ذلك حديث أذكر به صديق بقضية الإنسانية والإيمان بها،
وأثار ذلك وضده من النواحي العملية والاجتماعية.

غير أن القضية وضما آخر من الناحية الفلسفية قد لخصته في
تلك العبارة التي لا شك رآها الصديق في كتابي عن القضية وهي:
« أومن بالإنسان لأومن بالكون ورب الكون؟ قلن
يؤمن الفرد الإنساني بهما إن لم يؤمن بنوعه؛ لأن عقل الإنسان
هو المنظار الذي ندر كها به، فإن أهدرنا قيمة الإنسان أهدرنا

الخير له دولة في الحياة كما أن للشر دولة، ولا ضير على العقائد أن
يبقى من الشر بقايا ما دام الخير هو القانون الحبيب للنفس تلوذ به
وتمتصم بعواصمه عند المواقف الفاصلة... وإما أن نكفر بهذا
النوع ونهدر قيمه الخلقية، وننفذ آمالتنا في أنه مخلوق لغايات
كريمة، ولا نستمتع لوصايا الأديان القويمة بالبر وحسن الخلق
والدعوة للخير والنصب على الشر، وعندئذ فلنخلع قناع المدينة
عن وجوهنا وجوه الذئاب والخنازير والنمور، ولنفضح كل
مواضع النفاق الاجتماعي، ولنعلن بصراحة أن وصايا الأديان
أخاديع أو أغلوطات عظيمة من عبقریات التاريخ الكاذب
المدلس، وأن الإنسانية يجب أن تتخذ لها فلسفات فردية لكل
فرد في الأمة، ولكل أمة في الأمم يرعى فيها الفرد مصلحته
الخاصة، والأمة مصلحتها الذاتية، وتسمى كل أمة أن تكون
أربي من غيرها، لأنه لا رحم ولا نسب بينها وبين غيرها، وإنما
هي قطعان وحيوانات بشرية تسمى « لتعيش » في أضييق حيز،
وهو حيز « الذاتية ».

وأليست هذه الحياة التي وصفنا على هذا الفرض هي الحياة
التي تحياها الأمم وتشتى بها كل أمة وتدمر كل حضارة؟! فإذا
أردنا أن نفر منها، فلماذا لا تؤمن بفلسفة تناقضها وتجاربها؟!
وهل هذه الفلسفة إلا أن « تؤمن بالإنسانية الواحدة ». وأنها
مخلوقة لتأيات عليا ليست هذا النزاع على الذهب الأصفر والذهب
الأسود والفحم الأسود والفحم الأبيض « وإنما هي البحث عن
كلمات الله في الطبيعة بحث طالب « العلم » لا طالب « الفائدة »
السادية وحدها؟.

وأليست هذه الغاية لو تحققت جدية بأن تشر الناس جميعا
أنهم نوع واحد غريب الوضع في هذا الكون! لأنه وحده يفتح
أبواب الطبيعة بابا فبابا، ويتدرج في تسخير قواها درجة درجة
حتى وضع يده في متابعتها، وحطم أسوار « الذرة » التي هي وحدة
بناء الكون السادي.

ذلك هو « الوضع الأميل » للإنسانية الذي يجب أن يرصدها
منه الراضدون ليعلموا أي كائن هذا الإنسان الذي يحملونه في
أجسادهم ويبادلونه ماصح وما فسد من شأنه وشئونهم!

أما أنت يرصده راضد في « ولد طاق »، أو « وحش
الاسكندرية » أو « سفاح باريس » الأخير أو غير أولئك من

جريئاً لا يتهيب أن يدعو الأسراء والولاة والحكام إلى طاعة الله .
والتمسك بأهداب الدين ، والأسر بالمروف ، والنهي عن المنكر .
وكان يؤم الناس في ولايات « أنقرة » و « بورصة »
و « قونية » وما إليها من البلدان وأقرأ ابن السلطان كتاب
الهداية ووقفه على دقائقه وجلاله غوامضه .

ولن يؤخذ هذا الرجل الصالح بما فرط منه من زلات في جن
نشاطه ومستهل فتوته . فقد أفلح عنها وتم له النسك بعد اكتمال
عقله ورجواته وقد ختم حياته بالوعظ وتدریس علوم الدين .

وقد أهلته شجاعته وحكمته ودعابته ، وما تحلى به من مواهب
وميزات باهرة ، وما حباه الله به من قدرة على اكتناء دقائق الفن
والنفاذ إلى مناقب العلم ، وما ذاع بين معاصريه من شهرة مستقيصة
بين علماء زمنه وحكام عصره ، إلى الظفر بأسمى المناصب ، وأتاحت
له التول في حضرة « تيمورلنك » والاتصال به . ومكنت له
تلك الأسباب مجتمعة من النجاح فيما هدف له من تلطيف جوره
وكف أذاه عن الناس وتخليصهم من كثير من مظالمه .

قالوا : وساعدته على ذلك بديهته حاضرة وكياسة نادرة ،
ونكتة مستعذبة ودعابة محببة .

وإن مرتاد الأناضول ليدهشه ما يراه من اعتقاد الناس فيه ؛
فهو عند الأهلين : من أولياء الله المقربين . وهم يؤمنون بأن
زيارة قبره تجلب البركة والخير العميم على زائريه . فإذا شك إنسان
في شيء من هذا أصابه أذى أو مكروه جزاء جحوده ونكرانه .
وللأهلين في ذلك الباب طرائف كثيرة ، منها :

« أت مركبة صرت أمام قبره ، وعليها هودج معمد
(أعني : ذا أعمدة) . وكان يستقل الهودج أسرة فيها شاب
لا يدين بالخرافات . فلم يشأ أن يجرى على عادة الأهلين الذين تفرض
عليهم التقاليد أن يترجلوا قبل أن يملنوا قبره ، وأن يقرأوا الفاتحة
أمامه باسمين وإلا عرضوا أنفسهم لساءة وشيكة ، وربما حلت
بهم كارثة عاجلة لا قبل لهم بها ، ولا حيلة لهم في دفعها .

قالوا : وأسر الشاب على أن يستبين بهنا التقليد الصالح الذي
جرت به العادة هناك . فإذا حدث ؟

لم يكذب الهودج بغير خطوات قليلة حتى اصطدم فيما يزعمون
بفروع شجرة ممدود ، فجفت الخيل وقذفت بأفراد الأسرة على

الأرض ، وتمزقت سجوف الهودج ورفارفه .
فلا غرو إذا ثبت اعتقاد الأهلين في بركة الشيخ وقال قائلهم
مباهاياً :

منذا الذي يجرؤ على احتقار شيخنا ، أو الاستخفاف به ،
بعد اليوم ؟

وقد علق على هذه القصة بعض أفاضل الباحثين من الترك ،
فقال :

« ولا ضير من أمثال هذا الاعتقاد ، فإن الاستنجاد بروحانية
الأخيار أفضل وأجدى مما يرتكبه المنكرون الجاحدون من
شور وحقاقت .

قالوا إن عالماً متفهماً في دينه ، سأل زوجته : لماذا لم تكنس
البيت؟ فقالت له « ذهبت إلى أي اليوم ، ولم أعد إلا ساعة الغروب »
فقال : « لقد صرت ساعتان على ذلك فأبالك لم تكنسيه؟ » فصاحت
فيه متعجبة : كيف تقول هذا؟ ألا تعلم أن الكنس يحرم متى جن
الليل؟ » فضرب الرجل كفاً على كفه وقال من أين لك هذا
العلم أيها البلهاء؟ أمحين أن تعلميني ما أدرسه للناس كل يوم في
المسجد من شئون الحرام والحلال؟ » فقالت له : « لا شأن لي
بملكك ، فكذلك أخبرني أي وجدتي ، وعمتي وخالتي ، وأختي
وجارتي ، وعلى ذلك الرأي أجمع كل من عرفت »

فلما اشتدت اللجاجة بينهما قالت له الزوجة متبرمة : « اكنس
أنت إذا شئت ما دمت لا ترى في ذلك حرجاً »

فأمسك الشيخ بالمكنسة وراح يكنس هازئاً برأى صاحبه
متحدياً بإياها بين لحظة وأخرى . ولم يكذب ينهى من ذلكم حتى
لدغته عقرب فصاح مفوتاً يقول :

« لعله علم وترك »

لعلنا نتعلم من هذه القصة ما يجب على كل رجل من الأذعان
لرأى المرأة — ولو كان باطلاً وطاعته طاعة عمياء .

ومن عادة الأهلين السذج في « آق شهر » أن ينظموا الأشعار
في أعراسهم بعد أن يذهبوا إلى قبر الأستاذ نصر الدين ، ثم
يوجهوا الدعوة إليه ، وهذا نصها :

« أحضر شيوخك ، وأحضر من تحب من أصفائك العلماء .
وليس يجرؤ أحد منهم على مخالفة هذا التقليد : وعندما :

وباطلاعنا على هذه السياحة وجدنا أن للمرحوم قبراً في مقبرة « آق شهر » مكتوباً على شاهدته هذه الجملة :
هذه التربة . المرحوم المغفور له المحتاج إلى رحمة ربه الغفور
نصر الدين أفندي روحنا (إلى روحه) فاجحة ٣٨٦ .

٢ - تاريخ وفاته :

ثم يقول :
وقد استثار هذا التاريخ دهشتنا لأن نصر الدين لم يمض في ذلك التاريخ ، واستدلنا على أنه محرف ، وأن الأرقام قد كتبت معكوسة ، وصحتها ٦٨٣ . وقد تبينت صحة ذلك التاريخ من التحقيق المحلى الذى اقت به لأن المرحوم من رجال السلطان أو رخان . وقد حكمتنا من الشواهد والملاسات أن ما وصلنا إليه من نتيجة هو الصواب لا ذلك الذى كتبه على شاهدته قبره خطأ . وقد تبين لنا من ذلك الخطأ فى التاريخ التثبت على القبر ومن كتابة أرقامه أنها مقلوبة .

ومن عجائب الاتفاق وغرائب الأستاذ أن يقبل تاريخ وفاته على قبره أيضاً ، وكأنما تعمد كاتبه أن يقبله ليبدل على أن النكته لا تفارق صاحبنا حياً وميتاً .

إلى أن يقول :

« وقد انتهت تحقيقاتنا إلى أنه كان - رحمه الله - قد ظهر تقريباً فى عهد السلطان أورخان ، وامتدت حياته إلى عصر السلطان « ييلديرم بايزيد » أى « الصاعقة بايزيد » .
ومعنى هذا أنه عاش فى أوائل القرن السابع . وأنه عاش ستين عاماً أو يزيد ، إلى أن توفى سنة ٦٨٣ هـ كما يدل على ذلك لوح القبر الذى دُفن فيه » .

وقد قست جريدة صدق الأجراس (جينفر اقل تانار) الكلمة التالية من كتاب تاريخ النكات (لطائف نوبس) وقد ألفه فى جزئين عن لطائف نصر الدين ، قالت :

كان الأستاذ من رجال المرحوم السلطان ييلديرم بايزيد .

٣ - صيغة تمجيد لك :

فإذا عن لنا أن تفرق فى مناقشة أقوال هذا المحقق ، ونشتمهم ما انتهت إليه تحقيقاته العلمية ، نتمرد علينا أن نجاريه فيما انتهى إليه .

أن الحياة الزوجية لن تزدهر بين الروسين ، ولن يباركها الله إذا غفلوا عن تنفيذ هذا التقليد .

ولا يقتصر المحتفلون على ذلكم ، بل يدعون حارس قبره ليكسب حفلهم بهجة وجوراً بما يقصه عليهم من ماجه وطرائفه

مفسر نصر الدين

ومن طريف ما يروى أن بعض حفدته قدم إلى الأستاذة مع أسرته ، فى عهد السلطان مراد الثالث ، فى القرن العاشر الهجرى (٩٨٢ إلى ١٠٠٣ هـ) ، ملتصاً من وزارة الأوقاف أن تقرر له إعانة شهرية يسيرة من المال تمكنه من شراء ما يتبلغ به من القوت . ولم يجد حفيد نصر الدين شيئاً يربط إليه دابته . ثم لم يلبث أن لحث عيناه طبلاً كبيراً أمام باب الوزارة ، يستخدمونه لتنظيم المواعيد ، وتوقيت الحضور والانصراف ، وما إلى ذلك مما تستخدم فيه الأجراس عادة . فشد صاحبنا دابته إلى ذلكم الطبل بعد أن ضاقت به الحيل فى الاهتداء إلى غيره .

وكان فى ساحة الوزارة - جبهة من البغال التى تعدها الدولة - كل عام - للذهاب بما تحمله من مال ورجال إلى الحج . ولم تكذب الدابة تستقر حتى ركلت الطبل برجلها - تعمداً أو اتفاقاً - فأحدثت ضجة وضوضاء . فأجفت البغال وهربت من الذعر . وشاع المرح والمزج . وأزعج ولاية الأمر ، وبحشوا عن مصدر الضجج ثم ما لبثوا أن اهتدوا إلى أن حفيد نصر الدين هو مصدر الضجة كلها .

وقد كانت تلكم الحادثة وحدها كافية للتعريف بنفسه ، فأغنتهم عن التثبت من بنوته ، بعد أن رأوا فى تصرفه ما يدل على أصالته ، وصحة نسبه .

تحقيقات

١ - قبر نصر الدين :

ولا بأس من وقفة قصيرة نستعرض فيها ما انتهى إليه بعض الباحثين فى تاريخ الأستاذ نصر الدين إذ يقول :
« ونحن بما انتهت إليه تحقيقاتنا العلمية فى بلاد الأناضول وقتنا على كتاب : « السياحة إلى قونية » الذى أهدها إلينا أحد الأفاضل إخواننا (ضيا بك) .

التاريخ المثلث على جدته وهي ٣٦٨ ، فليس لنا مندوحة عن نقل رقم الثمانية من الطرف الأيمن إلى الطرف الأيسر ، أعني : من رقم الآحاد إلى رقم المئات فتصبح حينئذ ٨٣٦٨ . وهذا التاريخ — على أى حال — فى حدود الممكنات ، إذا استحال علينا الأخذ بالتاريخين السابقين طردا وعكسا . فإذا أينا إلا الاسترسال فى تحوير الأرقام وتقليبها على كل وجوهها لم يبق أمامنا إلا تحوير واحد ، هو آخر ما يتبقى لمن يحلوه أن يتثبت بها ، لم يبق إلا تاريخ ٨٦٣ هـ ، وهو كما ترون : أبعد احتمالا من سابقه ، وإن لم يكن مممنا فى الاستحالة إيمان التاريخ المثلث على القبر مثبتا ومقلوبا ، هذا إذا تسمحننا فى عمره بأنه لم يمض إلا ستين عاما أو قريبا كما يقول القائلون .

فلو أنه عاش مائة عام مثلا لما استحال على الباحث أن يأخذ بهذا التاريخ . على أن خير الأمور الوسط ، والاعتدال ، كما يقولون ، هو : الحسن بن الحسين .

من بدائع ما يروى من الطرف فى هذا الباب أن متحدثنا ممن وهبهم الله — إلى نعمة النيباء والغفلة — عجمة اللسان ، قال :

« حسن وحسين بنات معاوية بن عفان » .

فصاح فيه أحد السامعين متمجبا :

قل لى بأى خطأ فى هذه الجملة القصيرة أبدا تصويبه :

قأول الأشياء . هما : « حسن » و « حسين » وليسا « حسنا » ولا « حسينا » :

والثانى أنهما ليسا من النساء بل من الرجال .

والثالث أنهما ليسا جمعا بل مثنى .

والرابع أنهما ولدان لا بنتان ولا بنات .

والخامس أن أباهما على بن أبى طالب لا معاوية .

والسادس أن معاوية بن أبى سفيان لا ابن عفان .

والسابع أن ابن عفان هو عثمان لا معاوية »

وما أكثر ما يتعطل الباحث فى تاريخ ججا ، هذه الطرفة الرائعة كلما عرض لناقشة الكثير من أقوال من تصدوا للحديث عنه ، فى أكثر المناسبات ، على اختلاف اللغات .

طامل كيمورى

فإذا افترضنا أن التاريخ مقلوب — كما ذهب إلى ذلك صاحبنا وتابعه فى رأيه كل من أظفرنا الحظ بقراءة بحوثهم ، فكيف نطل ما حدثنا به ذلكم الباحث نفسه وما حدثنا به جمهور المؤرخين من صحبته للباطش السفاح الطاغية تيمور لذك .

كيف نطل ذلكم ، وقد ولد « تيمور لذك » بمدينة « كيش » — فيما تملون فى القرن الثامن ، إذا صح أن « نصر الدين » مات فى القرن السابع .

إذا صح أن تيمور لذك ولد عام ٧٣٧ هـ فيما يقول التاريخ وأن نصر الدين مات عام ٦٨٣ هـ فكيف التقيا ؟ وكيف ونصر الدين لم يدرك مولد الطاغية ، بله انتصاره على بايزيد الصاعقة الذى تم له — فيما تملون وأعلم — عام ٨٠٥ هـ ١٤٠٢ م بل كيف لى « أورخان » وهو لم يل الإمارة إلا عام ٧٢٦ هـ ، أى بعد وفاة « نصر الدين » بثلاثة وأربعين عاما .

لقد مات « أورخان » عام ٧٦١ هـ ، ثم خلفه ابنه مراد الأول (من ٧٦١ - ٧٩٢ هـ) ثم خلفه بايزيد الأول (٧٩٢ - ٨٠٣ هـ) وانتهى أمره فى عام ٨٠٥ هـ .

كيف نطل ذلكم كله وأخباره مستفيضة مع بايزيد وتيمور لذك !

قالوا : إن ججا بطل محاضراتنا ، سمع قفيها يتلو الآية هكذا « نخر عليهم السقف من تحتهم » فانتفض ججا غاضبا ، وصرخ فيه متمجبا . « إذا فانك النص يا هذا فلا يفوتك الذوق ! كيف استقام فى ذهرك أن يسقط عليهم السقف من تحت ؟ قل من فوقهم لا أبالك ؟

إحدى اثنتين أيها السادة :

إما أن تأخذ بالتاريخ المقلوب ، كما أخذ ذلكم المحقق ، فننكر صلة نصر الدين ببايزيد بله تيمور لذك !

وإما أن تأخذ برواية من يثبتون لنا مؤكدين أنه صحب بايزيد كما صحب تيمور لذك من بعده ، فننكر صحة التاريخ المكتوب على القبر طردا وعكسا ، ونسقط رأى أولئك المحققين أثباتا كانوا أم غير أثبات .

فإن كان لا بد من التثبت بالأرقام الثلاثة التى يتألف منها

من وصي الصوم :

رمضان عند الأدباء ..

للأستاذ محمد رجب البيومي

يتمتع شهر رمضان المبارك بمنزلة طيبة في نفوس الكثرة الغالبة من المسلمين ، فانت تراه ضيفاً محبوباً يُستقبل حين قدومه بشتى مظاهر المحبة والابتهاج ، ويُودع حين رحيله بدموع الحسرة والالتياح . وإذا كنا نسمع في أخبار الماضين من رجال السلف الصالح رضى الله عنهم أنهم كانوا يعززون أنفسهم في الليالي الأخيرة من رمضان ، فإننا لا نزال نرى بأعيننا الفسقة والمصاة من المؤمنين يجترحون السيئات ويقترفون الموبقات ، حتى إذا وجدوا أنفسهم في حرم رمضان ضجت السننم بالتهليل والتكبير ، وارتعدت فرائصهم من خشية الله ، وئزموا حلقات الدروس في المساجد يستنشقون روائح الجنة من نسائم هذا الشهر المبارك !

ولكن فريقاً من الأدباء - عفا الله عنهم - قد أخذوا يغازلون شهر الصيام مغالاة شكا منها إلى ربه ، ثم تحولت المغالاة على عمر الأيام إلى عداة مستحكم ، فبعد أن كان الشاعر لا يزيد على قوله :

فَبِتُّ أَنْ قَتَاةَ جِثَّتْ أَخْطَبُهَا

عمر قوبها مثل شهر الصوم في الطول

أو قوله :

أَتَأْمُرُنِي بِالصَّوْمِ لَا دَرَّةَ دَرَاهِمًا وَفِي الْقَبْرِ صَوْمٌ يَا أَمِيمَ طَوِيلٌ
بَعْدَ أَنْ كَانَ لَا يَزِيدُ عَلَيَّ ذَلِكَ وَجَدْنَا الْأَمْرَ قَدْ اسْتَحَالَ جَفَاةً
إِلَى هَجْوِ لَذَعٍ ، وَسَبِّ مَبْرَحٍ ، لَا نَظْنَ إِلَّا أَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَيَنْتَقِمُ
لِلظَالِمِ فِيهِ مِنَ الْمَظْلُومِ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

وأول من أعلن هذه الحرب الظالمة - فيما نعلم - هو هذا الأعرابي الغدُم الذي يروي ابن قتيبة في عيون الأخبار قصته فيقول :

« قدم أعرابي على ابن عم له بالحضر ، فأدركه شهر رمضان ، فقيل له : يا أبا عمرو ، لقد أتاك شهر رمضان ! قال : وما شهر

رمضان ؟ قالوا : الإمساك عن الطعام ! قال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا : بل بالنهار ؛ قال : أفيرضون بدلا من الشهر ؟ قالوا : لا ؛ قال : فإن لم أصم فعلوا ما ذا ؟ قالوا : تُضرب وتُحبس ... فصام أياماً فلم يصبر ، فأرحل عنهم إلى غيرهم وجعل ينشد :

يقول بنوعمي وقد زرت مصرم تهباً أبا عمرو لشهر صيام
فقلت لهم ها تواجرا بى ومزودى سلام عليكم فاذهبوا بسلام
فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر على ولا متاع أكل طعام «
كانت هذه القصة بذرة سيئة تولدت منها تلك الحملة الطائشة

التي شنها الأدباء على رمضان . وهما يمكن من شيء ، فقد حركت ما سكن في النفوس ، وأطلقت ما حبس في الصدور ، فخرج الأدب بصفقة رابحة كان نصيبها رمضان المسكين ! ولعل عزاءه في ذلك قول الله عز وجل : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » !

على أن كثيراً من الأدباء كانوا أقدر على ضبط السننم من إخوانهم الذين تورطوا في معاداة هذا الشهر العظيم ، فنحن نقرأ في تاريخ البحترى مثلاً أنه كان ضائق الصدر بمرضان ، متبرم النفس بطوله ، وتللس ذلك في شعره ، فلا يجد إلا متفرقات بسيرة لا تطنق أواما ، ولا تيل غليلا ، كأن يقول :

فترى من شعبان إن وراه شهر أعيمتلك الرحيق الهلبلا
ثم بكرر هذا المنى مرة وثانية وثالثة ، فإذا هاج صبره بعد مرور سبعة وعشرين من عمر رمضان لم يزد على أن يطلب من الله عز وجل أن يجعل الشهر كله ليلاً حتى لا يجد النهار الذي يصوم فيه عن الطعام والشراب ، وفي ذلك يقول :

قد مضت سبعة وعشر وعشر ما نذوق اللذات إلا لما
ما على الليل لو أقام علينا أو يرانا من الصيام صياما
أما ابن الرومي ، فقد أطلق العنان لقرمحه الوقادة ، وأنهل على رمضان بسياطه المحرقة حتى مزق جلده ، وشوه أديمه ، وتعليل ذلك واضح يسير ، فالبحترى على رغم ما له من جاه عريض لدى الخلفاء والرؤساء كان نكساً رهديداً يقول المهجاء ، فيقبض يده على قلبه ويرسل وراء شمره العيون والأرصاد يتجسسون لدى المهجور ، ويخبرونه بموقع هجائه من نفسه ، فإن لم يُلق له بالأحد الله على السلامة . وإن كانت الأخرى أخذ يتزلف ويتوسل ويحبر النابغيات الطويلة في الاعتذار ، وحسبك أن تعلم أنه حين قال في قصيدته القافية

ولم أر كالدنيا حليلة صاحب محب متى تحسن يعينيه تطلق
تراها عيانا وهي صنعة وأخذ فتجسسها صنمى حكيم وأخرق
حين قال ذلك شنع عليه أحد العامة بأنه تنوى ، تخاف على نفسه
وقال لابنه أبي القوث : قم بنا نخرج من بغداد خروجا نأمن على
أنفسنا فيه ، ثم خرج ولم يعد ، فشخص نفسيته ضعيفة خاطرة
كالبحترى لا يمد الشجاعة الكافية التي يذم بها رمضان على
رءوس الأشهاد . ولا كذلك ابن الرومي ، فقد كان جسور
القلب حاد اللسان يسوق الهجاء في الوزراء وذوى الشأن في
الدولة ، ثم يتزايد ويتسع فيه دون مبالاة أو اكترات مما أدى
إلى حتفه في النهاية ، فأت ولم يستمتع بمخاطره ، ولم ينزع ركية
فكره . كما قال الصولي - فإذا كان هذا شأنه ، فغير كثير
عليه أن يسلط لسانه على رمضان مبرأ عما يختلج في نفسه أصدق
تعبير . والحق أن هذه صفة ابن الرومي يصدر عن طبعه وينقل عن
خاطره مهما جلب عليه ذلك من الشرور والويلات ، والجنون فنون
بدأ ابن الرومي حملته بتأديب ملوس ، فلم يشأ أن يهجم بادي
ذى بدء بما هجم به أخيراً من اللذم والقدح ، بل اكتفى بإعلان
تبرمه بطوله المتمد ، وود لو مر كالسحاب ، وكان جيمه كيوم
أو بعض يوم ، وقصارى حيلته أن يدعو عليه ، وأن يرحب بأيام
الفطر اللذيذة فيقول :

إذا بركت في صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك في شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الشهر فيه كان يوماً ومر نهاره مر السحاب
فلا أهلاً يمنع كل خير وأهلاً بالطعام وبالشراب
ويظهر أن ابن الرومي قد وجد آياته صادقة رواجاً محموداً
لدى من يشاركونه عواطفه وميوله . وكثير ما هم - فهجم
على شهر الصيام مرة أخرى ولكن بلسان أحد ، ولهجة أعنف ،
وقسوة أشد ، فود بجدع الأنف لو انتهى قبل أن يبدأ ، وأعلن
أن بركة هذا الشهر في طوله لا في خيره ، وزاد بأن تنازل عن
الأجر الذي أعده الله له جزاء صومه ؛ فهو يقول :

شهر الصيام مبارك لكما جملت لنا بركانه في طوله
من كان يألفه فليت خروجه
منى - بجدع الأنف - قبل دخوله

إلى ليعجبني تمام هلاله وأسر بعد تمامه ينحو له
لا أستثيب على قبول صيامه حتى تصرمة ثواب قبوله
وجا تراجداً أن يكون ابن الرومي قد غافى صوم رمضان في أوقات
تلفحها حرارة الصيف كما نمانيه في أوقاتنا هذه ، فهو لا يكتب بما
قدمنا بل يعيد الهجوم ثالثة ورابعة ، غير تارك بعده مجالاً لقائل ،
وليت شعري ماذا نفتظر منه بعد أن يقول
شهر الصيام وإن عظمت حرمة

شهر طويل ثقیل الظل والحركة
أذمه غير وقت فيه أحده منذ العشاء إلى أن تصدح الديكة
وكيف أحمد أوقاتنا مذممة بين الدهوب وبين الجوع مشتركة
يا صدق من قال أيام مباركة
إن كان يعنى عن اسم الطول بالبركة
شهر كان وقوعى فيه من قلنى

وسوء حال وقوع الحوت في الشبك
لو كان مولى وكنا كالعبيد له لكان مولى بمجيلة سى الملكة
قد كاد لولا دفاع الله بملنا إلى الردى ويؤدنا إلى الملكة
على أن من التناقض الظاهر أن ترى ابن الرومي في موضع
آخر من ديوانه يهني أحد الرءوساء بشهر الصيام فينحى باللائمة
على السهترين به ، وما درى أنه بشهره هذا قد فتح الباب لمن
جاء بعده ، ومهما يكن من شيء فقد ظهرت خفة روحه ظهوراً
أكسبه ملاحظة وظرفاً عند من يقدرون الأدب لذاته فهو على
تقيض أبي العتاهية المسكين ، فقد أوقمه حبه رمضان وتغظيمه إياه
في مآزق مضحك ، قال ابن رشيق في الجزء الثانى من السمدة
« لما مات المهدي قام أبو العتاهية يرثيه على ملا من الناس فقال
« مات الخليفة أيها الثقلان »

فرقع الحاضرون رءوسهم ، وفتحوا أعينهم وقالوا : ناه إلى
الإنس والجن ثم أتركه البين والفترة فقال :
« فكأننى أفطرت في رمضان » .

يريد أنى بمجاهرتى بهذا القول كأنما جاهرت بالإفطار نهاراً
في رمضان وهذا معنى جيد غريب في لفظ ردى غير معرب عما
في النفس ، ونحن نخالف صاحب السمدة فيما ذهب إليه من جودة
هذا المعنى ولو كان كما قال ما قابله الجمهور بالسخرية والاستهزاء .

وإذا كانت كتب الأدب تروى عن أبي نواس أنه قد حج
حجاً غير مبرور حين جد في طلب « جنان » فلم يظفر بطائل ،
ثم علم أخيراً أنها ذهبت إلى مكة فسار وراءها متظاهراً بالمشروع
والنسك وفي ذلك يقول :

ولما أن عيت وضايق صدري بمطلبها ومطلبها مسير
حججت وقت قد حجت جنان فيجمنى وإياها المسير
إذا كانت كتب الأدب تروى ذلك ، فإنها تروى عن ابن
الراوندي أنه قد صام صوماً غير مبرور - لو صح هذا التعبير
- وذلك أنه كان سميماً بطيئاً ، فقالت له إحدى صواحيبه : إن
وراءك شهراً ثقيلاً فمصمه ليذهب عنك هذا السمن فأطاعها تلبية
لرغبتها لا امتثالاً لأمر ربه ، وهو يملن هذا على العامة والخاصة
فيقول في تبجح وعناد :

وقائلة وقد جلست جوارى سميت وكنت قبلتد نحيفا
وراءك في غدٍ شهر ثقیل فمصمه لكي تكون فتى نحيفا
لوجهك لا لوجه الله سوي ولو آتى لقيت به الختوفا
وغير غريب من ابن الراوندي أن يقول ذلك فقد كان حيث
المقيدة سيء الطوية ، يترضى على كل شيء حتى على ربه فيمجب
من مجرى الرزق في أسلوب وقع ، ويهاجم الأديان في عمرد سافل
فكيف تستكثر عليه ما قاله في رمضان ؟ إننا نستكثر ذلك على
رئيس فاضل كإبن العميد مثلاً فقد كان جليل الخطر في عصره ،
مطاع الكلمة في دولته ، ثاقب العقل ، وضى التفكير ، ومع
ذلك فقد تورط فيما تورط فيه غيره حين هاجم هذا الشهر مهاجمة
نكتفي بأن ننقل منها هذه الفقرات « أسأل الله أن يقرب على
الفلك دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويزيل بركة
الطول عن ساعاته . ويرد على غرة شوال ، فهي أسنى الفرر عندى
وأقرها لمينى ، ويطلع بدره ، ويسمى النعى لشهر رمضان ،
ويمرض على هلاله أخنى من السحر ، وأظلم من الكفر ، وأنحف
من مجنون بنى طامر » إلى آخر ما جاء في الجزء الثانى من زهر
الأداب .

وكيفما كان الحال فقد فتح ابن العميد بذلك على رمضان ثغرة
واسعة ، جعلته يستمع هيجاهه شعراً وتراً بعد أن كان يأمن على

نفسه من ناحية النثر ويحجى بديع الزمان الهمذاني بعد ابن العميد
وهو كما نلم مولع بتقليده ، مقتف آثره ، فلا يفوته أن يهجو
رمضان ، فيكتب إلى أحد رؤسائه قائلاً « خصك الله بتقصير
أيامه ، فهو وإن عظمت بركته ، ثقيلة حركته ، وإن جل قدره ،
بعيد قمره ، فإن حمن وجهه فسوف يقبح قفاه ، وما أحسنه في
القدال وأشبه إداره بالإقبال ، جعل الله قدمه سبب رحاله ،
وبدره فداء هلاله ، وأمد فلكه تحريكاً ، بتقضى مدته وشيكاً ،
وأظهر هلاله نحيفاً ، لنزف إلى اللذات زقيفاً » ونحن لا نستنكر
ذلك من الهمذاني كما استنكرناه من ابن العميد ، فقد كان بديع
الزمان طويل اللسان ، حاد القذف ، متطاولاً على غيره جاحداً حقوق
أولى العلم والفضل ، فكيف يصترف بشهر رمضان وقد فتح له ابن
العميد الباب على مصراعيه فقال ما قال !

وإذا كنا نستثقل الآن صوم رمضان في وقفة القيظ وحرارة
الصيف فقد وجدنا ابن عون الكاتب يستثقله في فصل الربيع إذ
يرى أنه زمان الهجة ، وأوان اللعنة والذادة ، فلا يبنى أن
يكدر بالصوم وفي ذلك يقول

جاءنا الصوم في الربيع فهلاخ تار ربماً من سائر الأرباع
وكان الربيع في الصوم عقد فوق بحر فطاء فضل قناع
وإذن فالصوم عنده في الربيع قناع أسدل على بحر مضى
فنع إشراقه وحجب التمتع برؤيته

أما القاضي الفاضل - وهو من المولمين أيضاً بمحاكاة ابن
العميد - فقد نظم قصيدة خمرية طوييلة جرى فيها مع اللذات إلى
أبعد شوط وقد حرص على أن يهاجم في مبدئها شهر رمضان -
تقليداً لأستاذه - فقال

قضى نحبه الشهر بعد المطال وأطلق من قيد فتر الهلال
وروض كاتب جنبي اليمين وأتعب كاتب جنبي الشمال
فدع ضيقه مثل شد الإسار إلى فرجة مثل حل العقال
وهو بذلك قد وجه نظر أمير الشعراء رحمه الله إلى هذا المعنى
بذاته فقال ولكن في أسلوب أروع ونسج أحكم

رمضان ولي هاتها ياساقى مشتاقة تسمى إلى مشتاق
ما كان أكثره على الأفها وأقله في طاعة الخلاق

صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والهدايا

للاستاذ صلاح الدين المنجد

— ٣ —

—>>>><<<<—

أما هدايا الفصد ، فلا تخرج عما ذكرت من قبل ، فكانوا يهدون الجوارى والصواني والأقداح والجامات البلور والشامات والعنبر والسك .

فقد فصد الرشيد فأهدى إليه اليزيدي جام بلور ، وشامات غالية ، وكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، تغافل بالشرب بالجام

بالأمس قد كنا سجينى طاعة . واليوم من العيد بالإطلاق ولا أدري كيف وقع شوق في هذا وهو الذي باهى بنسكه وتبته حين قال

وأشهد ما آذيت نفسك ولم أضرب . ولم أبع في جهري وفي خطراني ولايت إلا كابن مريم مشفقاً على حدى مستغفراً لعدائي وعلى كل فإن هذه الحمة الظالمة التي قام بها الأدياء على رمضان لم تستطع أن ترحح مكانته — ولو قليلاً — في النفوس ، بل زادت رسوخاً وثباتاً ، وخرج المجانين من المعركة يميرون أذيال الخليفة والمزينة ، وكل امرئ بما كسب رهين

•••

وبعد فما أردت بهذا المرض الموجز أن أتزيد على رمضان ، فيعلم الله أني أول الناس تقانياً في محبته وإجلاله ، ولكنني قصدت الترفيه عن القراء في وقت اندلعت فيه السنة المهجيرة فأحرقت الأفتدة وألهمت الجلود ، ومن يدري لعل هؤلاء الأدياء يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قرب متظاهراً بالصوم والعبادة وبين جنيته قلب مدنس بالمعاصي مثقل بالآثام ، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها

خليلى ، قطاع الفياق إلى الحى . كثير ، وإن الراسلين قليل

محمد رجب اليربوعي

بجهاً النفس ودوام الأنىس ، والغالية للقلوب في السرور والازدياد من الجبور^(١) .

واقصد المأمون مرة فأهدى إليه إبراهيم بن المهدي جارية معها عود ، ورقعة فيها :

عفوت وكان العفو منك سجية كما كان معقوداً بغيرك الملك^(٢) وفي مرة ثانية ، أهدت إليه (رياح) أترجة عنبر ، مكتوب عليها بماء الذهب بيتين من الشعر أعجب بهما ، فكافأها بمال كثير^(٣) .

واقصد المتعمم فأهدت إليه (شمائل) صينية عقيق عليها قدح ، أسبل عليهما منديل مطيب ، مكتوب عليه بالعنبر ، آيات شعر رقيق ، فلما قرأه أمر بإحضار اسحق بن إبراهيم ، وأمره أن يجعل له لحناً ، وأمر مسروراً بإخراجها من وراء الستارة ، ثم لم يزل يردد هذه الآيات حتى أحكمتها شمائل وغنت فكان سقط الدر يتناثر من فيها وأمر لاسحق بمال ولليجارية بخمسة مئانف وخمسة آلاف دينار^(٤) .

واقصد إبراهيم بن المهدي ، فأهدى إليه اسحق بن إبراهيم الموصلى صوتاً من غنائه ، وأرسل غلامه فنتاه به^(٥) .

وربما طلب الخليفة من خاصته أن يهدوه ، كما فعل المتوكل . فقد اقتصد ، فقال لخاسته وندمائه اهدوا إلي يوم فصدى . فاحتفل كل واحد منهم في هديته .

وأهدى إليه الفتح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلها حسناً وظرفاً وكالاً . فدخلت ومعها جام ذهب في نهاية الحسن ، ودن بلور لم ير مثله فيه شراب يتجاوز الصفات ، ورقعة فيها تهنئة بالشفاء فاستظرف المتوكل ذلك واستحسنه^(٦) .

ولعل ألطف هدية أهديت في يوم فصد ، هي هدية أبي دلف فقد اقتصد عبد الله بن طاهر ، فجمع أبو دلف ما أصاب في

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٨١ .

(٣) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .

(٤) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .

(٥) الأغانى ج ٥ ص ٦٦ .

(٦) عميون الأبناء في طبقات الأطباء ص ١٨٦ .

وفي سنة ٣١٠ هـ وصلت هدية ابن المادرائي الحسين بن أحمد من مصر ، وهي بقلعة ومعها فلو ، و غلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه أنفه^(١) .

وكان ملوك الروم والفرنجة يهدون إلى الخلفاء العباسيين الهدايا العظام تودداً ومحبة . فقد أهدى ملك الروم إلى المأمون مائتي رطل مسك ، ومائتي جلد سمور . فقال المأمون : ضاعفوها ليعلم عز الإسلام^(٢) .

وأهدت ملكة الفرنجة إلى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً ، وخمسين رحماً ، وخمسين فرساً ، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب ، وعشرين خادماً صقلياً حسناً ، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع ، وستة بازات وسبعة صقور ، ومضرب حرير^(٣) .

وفي سنة ٣٢٦ هـ ورد كتاب من ملك الروم إلى الراضي . وكانت الكتابة بالرومية بالذهب ، والترجمة بالعربية بالفضة ، بطلب الهدية . وفيه : « لما بلذنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتعام الأدب ، واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء ، حمدنا الله تعالى ... وقد وجهنا شيئاً من الألفاظ ، وهي أقداح وجرار من فضة وذهب وجوهر ، وقضبان فضة ، وستور ، وثياب سقلاطون ، ونسيج ومناديل وأشياء كثيرة فاخرة » .

فكتب إليهم الجواب بقبول الهدية ، والاذن في الغذاء ، وهدنة سنة^(٤) .

فهذه ألوان من الهدايا ، وتبيان لهذه العادة الاجتماعية التي كان لها شأن في العصر العباسي ، الحافل بالمعائب والنرائب .

صريح الربيع المنجبر

السوق من الورد وأرسله هدية له^(١) ، وقد أوردت هذا الخبر لظرفه ، رغم أن ابن طاهر ليس من الخلفاء .

أما هدايا المهال و لولاة واللوك فكثيرة . فكان كل وال يتفنن بإرسال الهدايا للخليفة ابتغاء مرضاته . فقد وجه يعقوب ابن الليث صاحب خراسان إلى المعتمد هدية من جلها عشر بزاة منها باز أبلق لم ير مثله ، ومائة مهر ، وعشرون صندوقاً على عشرة بنال ، فيها طرائف الصين وغرائبها ، ومائة عود من مسك ، ومائة من عود هندي ، وأربعة آلاف درهم^(٢) .

ولما قدم ابن الجصاص من مصر على المعتضد ، مرسلًا من بخارويه ، كان معه هدايا من البين عشرين حملاً على بنال . وعشرة من الخدم ، و صندوقان فيهما طرائف . وعشرون رجلاً على عشرين نجيباً بالسروج المحلاة ، ومعهم جرار فضة ، وعليهم أقيية ديباج وسبع عشرة دابة بسروج ولحم ، منها خمسة بذهب والباقى بفضة ، و زرافة^(٣) .

وقد يرسل إلى الخليفة كل غريب . ففي سنة ٢٩٩ وردت من مصر هدايا منها كما ذكر الصولي تيس له ضرع يحلب اللبن . ووردت رسل أحمد بن اسماعيل يهدايا منها مذبة مرصعة بفاخر الجوهر ، وتاج من ذهب مرصع بجوهر له قيمة كبيرة . ومناطق ذهب مرصعة ، وربعة ذهب مرصعة^(٤) .

ووردت هدايا ابن أبي الساج أربعمائة دابة ، وثمانون ألف دينار ، وفرش أرمني لم ير مثله في بساط طولُه سبعمون ذراعاً في عرض ستين ذراعاً ، عمل في عشر سنين^(٥) .

وفي سنة ٣٠٥ ، زمن المعتضد ، ورد على السلطان هدايا جليلة من أحمد بن هلال صاحب عمان . وفيها أنواع الطيب ، ورماح ، وطرائف من طرائف البحر ، و طائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفصح من البيضاء ، و ظباء سود^(٦) .

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .

(٢) مطالع البدور ج ٢ ص ١٣٥ .

(٣) المنتظم ج ٥ ص ١٣٨ .

(٤) ، (٥) المصدر السابق ج ٦ ص ١١٠ .

(٦) المنتظم ج ٦ ص ١١٥ .

(١) المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٢) أخبار الخلفاء ص ١٧٩ .

(٣) مطالع البدور ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٤) المنتظم ج ٦ ص ٢٩٣ .

هل من جديد في الأزهر؟

للأستاذ الأب قسوانى

إن المؤرخ الذى يحاول أن يتتبع مراحل التطور الفكرى فى مصر فى أيامنا هذه يضطر - بلا جدال - إلى الإقرار بأن حياتنا العقلية تمخضت تخفضاً عتيفاً ، وأن روح التقدم الحقيقى الذى يأبى أن يضرب عرض الحائط بما فى ترانثا الثقافى من قيم خالصة - أخذ يتسرب رويداً رويداً إلى مختلف أوساطنا العلمية . ولطالما كانت تخامرنى هذه الفكرة أثناء إقامتى فى الخارج ، ولطالما تحدثت عنها - فى باريس ، وفى فاس ، وفى تونس - مع الذين يهتمون بمستقبل الثقافة العليا فى البلاد العربية ؛ فكنا نتساءل - مع شىء من النهف - عن مدى انتشار هذه الثقافة ، وقوة تغلغلها فى الأذهان : هل تظل شيئاً سطحياً شكلياً ، أم تخوض فى صميم التعليم فتكيف العقلية ؟ ولئن كان هذا التطور يبدو بكل وضوح فيما يخص الجامعة المصرية ، لما هى عليه - منذ نشأتها - من انسجام مع الروح الحديث ؛ فالأمر كان لا يتخلو من النعوض فيما يتعلق بالأزهر ، وهو المعهد العتيق الذى ركزت فيه منذ قرون برامج كادت - بموجب موضوعها - تنزّه عما يتطور ويفنى . . .

ولذا كنت مشغوقاً كل الشغف عند ما رجعت إلى الديار المصرية - وأنا منكب على دراسة فلسفة القرون الوسطى مسيحية كات أو إسلامية - أن اتصل بمن يوقنى على تطور التعليم فى الماهد الدينية فى هذه المادة ؛ وخصوصاً فى الأزهر الحالى وموقفه من الأبحاث المقارنات التى تسنى لى أن أتبين خطورتها أثناء دراستى فى الماهد الدينية فى أوروبا ، ولذا لبست - بكل ترحاب - دعوة أحد أصدقائى الأزهريين إلى حضور المناقشة العلمية لتليل شهادة العالمية من درجة أستاذ فى التوحيد والفلسفة التى كانت إقامتها مزمعة يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٤٦ فى مدرج كلية أصول الدين فى القاهرة ، ولقد شكرت صديقى أياً شكر لهذه الفرصة التى هياها لى ، فسمح لى أن أجد بطريقة عملية إيجابية جواباً لما كنت أوجهه لنفسى من سؤال ، وهذا ليس فقط من جهة الموضوع الذى نوقش فيه « تخرىج كتاب الملل والنحل للشهرستانى » ؛ بل أيضاً من جهة الجو الروحى الذى ساد هذه المناقشة ، ومن جهة انسجام العناصر المختلفة التى توفرت

فيه : فهناك سعادة الدكتور منصور فهمى باشا - مدير جامعة فاروق الأول سابقاً ، وكام سر مجمع فؤاد الأول للغة العربية - رأس اللجنة ، وهو ممن طالما ناشدوا روح التعاون الثقافى والتآزر العلمى ، وهناك الدكتور محمود الخضيرى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول سابقاً ، ووكيل البحوث والثقافة الإسلامية للأستاذ الأكبر شيخ الأزهر ، وهو من أبناء الجامعة المصرية الذين تخصصوا فى فرنسا واطافوا فى ألمانيا وأسبانيا ، وهناك الدكتور محمد غلاب خريج الأزهر وفرنسا ، وهناك الدكتور محمود حسب الله خريج الأزهر وإنجلترا ، وهناك الدكتور محمد البهى خريج الأزهر وألمانيا - وثلاثهم من أساتذة الفلسفة بالجامعة الأزهرية - أليس تكوين هذه اللجنة هو وحده رمزاً لما ينشده الأزهر ، ورمزاً لرغبته الأكيدة فى الأخذ من المناهج الحديثة بما يلائم رسالته العلمية ؟ .. وبما زاد هذا الرمز بلاغة تنوع النظارة الذين تسارعوا إلى حضور المناقشة

نعم ، إنه كان من الطبيعى أن ترى هناك أساتذة من الأزهر وطلبة أزهريين ، فالبيت بينهم ، والمناقش من إخوانهم ، ولكن أليس من الغريب السار أن نجد بينهم أربعة بقاوسة رهبان من يسوعيين ودومينيكين ، أحدهم مستشرق أمريكي والآخرون شرفيون ، بل مصريون ممن يعرفون الأستاذ المناقش جد المعرفة ؟ وأليس أعجب من هذا أن نشاهد بين الحاضرين آنسات فى المكان الخاص الذى خصص لمن فى أعلى المدرج ؟

وما وافت الساعة الخامسة حتى افتتح سعادة الرئيس الجلسة بكلمة استغرقت نصف ساعة ، وهو يتكلم بمهاسة رزينة هادئة واعتقاد عميق يعطى أحياناً لباراته نبرة قوية تجعلها تنفذ نفوذاً إلى الأذهان والقلوب : بدأ بالتناء على فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، الذى عاقه عن الحضور انعقاد المجلس الأعلى للأزهر ، وعلى فضيلة الأستاذ الكبير وكيل الأزهر ، وعلى فضيلة شيخ السككية ، وكرر الشكر لكل من ساهم فى العمل على اتساع دائرة الاتصال العلمى بين الأزهر والعلماء المدينين والجامعين ، خصوصاً فضيلة الأستاذ الأكبر الذى تخصص فى الفلسفة بجانب تعمقه فى النواحي الدينية المختلفة ، والذى أفادت منه الجامعة المصرية حيناً من الدهر ، ثم أبدى سعادة الرئيس أملاً فى أن الأزهر سينال اهتمام فضيلة الأستاذ الأكبر من الناحية الفلسفية ، وأن نوايع الأزهريين سيكوّنون - مع أستاذهم الأكبر - جواً سائحاً للدراسات

وضمه الله في فطرة الإنسان السلية ، تلك الفطرة التي تتمثل في الأديان جميعا : خيرا ، وعبدة ، وإخاء ، وعدلا ... حتى يكون هناك التفاهم الفكري والتفاهم الروحي ، وحتى تسير الإنسانية إلى خير ما خلقت له . » (١)

ولعمري ! لم أكن لأنتظر في هذه القاعة هذا الوضوح في رسم الهدف ، وهذه النزعة في السعي وراء تحقيقها ، فهامى الروح الجديدة التي كنت أتساءل عما إذا كانت وصلت إلى الأزهر ، وهاهو الزرع المبارك الذي بدأ ينبت بإذن ربه ، فالناقشة التي تلت هذه الكلمة جاءت بمثابة تطبيق للبادئ التي وضعتها سعادة الرئيس ، فالأستاذ صاحب الرسالة - وهو واقف رابط الجأش أمام المجلدات الأربعة لرسالته - أخذ يشرح موضوع رسالته ، ثم يجيب بهدوء عن الأسئلة التي وجهها إليه بالتوالي أعضاء اللجنة ؛ وهي أسئلة دقيقة تنفذ إلى لب الموضوع وتحاول تارة تقدم منهج البحث ، وتستفسر طورا بعض نتائج الرسالة ؛ حوار يديع على وزن ، أعاد إلى ذاكرتي تلك الرسائل التي تناقش في أوربا ؛ ولكن هنا مع شيء من « الظرف » المصري الذي لم يقلل شيئا من جسد المناقشة ؛ بل يكسبها روحا شرقية خاصة لم أجدها في الخارج .

وفي تمام الساعة الثامنة والاصف - أعني بعد مناقشة استغرقت ساعتين - رفعت الجلسة ، وخرجت اللجنة للدواولة ، ولما رجعت إلى قاعة المناقشة نطق سعادة الرئيس بالحكم قائلا : « بعد أن تناقش أعضاء اللجنة فيما استبانوه من حسن الاستعداد الفلنسي ، واتساع الآفاق ، والمجهود القيم في التأليف ، والمناجزة على العلم ، ومراعاة الخلق العلمي ، وتلقى النقد بصدر رحيب يدل على عظمة الحق ... قررت اللجنة فوز فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن فتح الله بدران بشهادة البالية مع لقب أستاذ من درجة ممتاز في التوحيد والفلسفة » . فدوت القاعة بالتصفيق والتهنئة ...

ورجعت إلى « الدير » والنهن نملوه بتفاصيل هذه الحفلة الثقافية العليا ؛ فحدثني قضي أن أسطر هذه الأسطر ؛ لعلها تسام - لا من جهة الرأي الشخصي ؛ بل من جهة الواقع المحسوس - أقول : لعلها تسام في إيضاح مشكلة الأزهر التي هوجلت مرارا على صفحات مجلة الرسالة الغراء .

أول باب فتواي

(١) مرخصنا هذه الأقوال على سادة فأقرها .

الفلسفية بحيث يستطيع الأزهر أن يؤثر - حتى من الجهة الفلسفية نفسها - على الجامعات الأخرى ، مادام الأزهر يطبق الأنماط العلمية في المناقشة والمناجزة في طلب الحق الذي هو ضالة المؤمنين ... ثم وجه سعادة الرئيس كلمة لطلاب البحث العلمي والحقيقة العلمية ، ناصحا إليهم بالجد والاجتهاد واتساع الآفاق والصبر والأمانة العلمية ، حتى يصلوا إلى ذلك الموقف الذي وقف فيه زميلهم - صاحب الرسالة - ذلك الموقف الذي يدل على حب البحث العلمي والتفاني فيه ، والذي يفتح الأبواب أمام من هو العلم الذين لا يشعرون . وتبني سعادته للأزهريين مستقبلا بإهرا ما داموا يوسعون ميادين بحوثهم وآفاق ثقافتهم ، بحيث يلتقي بهم ويتبادل الفائدة معهم من لم يسددهم الحظ ، ومن لم تتح لهم الظروف أن يتتقنوا بشقافة الأزهر .

ثم قرر سعادته : « أننا في عصر تعاون وتقام وتقارب بين الفلسفات ، بل وبين الأديان نفسها ، وأن هذا التواصل والتعاون هما اللذان يسيران بالإنسانية إلى وحدتها المنشودة وغايتها المرجوة ، وآية ذلك ما نشاهد الليلة من جو مشبع بروح التسامح والنهوض الفكري » . وأشار سعادة الرئيس إلى أن هذه أول مرة يرى أو يسمع فيها أن في الأزهر غربيين وقساوسة ورهبانا : « وهذا يذكرنا بروح التسامح الذي كان الأزهر متمسبا به ، والذي كان صدر الأزهر دائما مُتَمَسِّحا له » . وأن هذه أول مرة أيضا سمع فيها سعادته أو رأى آتسات يحضرن مجالس العلم في الأزهر وتخصص لمن أما كن فيه . « وهذا يدل على درجة عالية في النضوج الفكري والمستوى العلمي الفروض طلبه على كل مسلم ومسلمة ، ويبين في وضوح أن الأزهر أخذ يقدر ما هو مطلوب منه بإزاء الملهمات بجانب ما هو مطلوب منه بإزاء المسلمين ، وأن هذا كله جو مبشر يدعو إلى التفاؤل بمستقبل الأزهر ، الذي كان قد انزل مدة طويلة حتى عن العلماء المدنيين » .

ثم قال سعادته : « أما وقد لبي الأزهر حاجة العصر ، وسائر روح الزمن ، فسام في الوحدة المالية ، واتصل بالمعلم التي تكونت في ميادين أخرى بروح التسامح الديني ، والتآزر الفلسفي ، والتآخي العلمي ، فإنه سيحصل - قريبا - قديمه بحديثه ، ويصبح منبع ثروة كبيرة في التوجيهات الفكرية والعلمية والدينية للعالم كله ، وهذا مأمول ، وهو في رعاية شيخ درس الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية وأخاد مما فيها من خير مذكور . وتصيحتي العامة لكل شخص : أن يعمل للخير الذي

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[التيشارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للاستاذ محمود الخفيف

- ٢٢ -

البرسيترينز والصرمة الثانية :

قلت قيمة المرأة في نظر ملتن ، وانحط مستوى الطبيعة البشرية عما قدر لها من قبل في خياله وفكره ، وساءه أن يعرض معاصروه عن آرائه في الطلاق ، وما جاهد جهاده إلا تخيرهم ؟ وآلمه وكدره أن يخاصمه بعض الناس وأن يناصبوه العداء ؛ وجاءت مخالفة البرسيترينز إياه بعد ذلك ، فكانت هي الطامة الكبرى .

قدر ملتن أن سوف ينظر إليه أهل عصره لما أذاع فيهم من رأى في الطلاق نظرهم إلى مصلح عظيم ، وكان يرى في تطلع ذلك العصر إلى الإصلاح وشدة ميله إلى تغيير كل شيء وعلى الأخص في السياسة والدين حافظا يحفظه ويزيده استبشارا وأملا ، كما كان يدفعه إلى الجد ويوحى إلى نفسه أنه يعمل عمل أفاض المصلحين ، شدة ثقته في نفسه وكثرة الذهاب بها ويقينه من تمكنه وضلوعته واتساع أفقه ، وما يرى من إكبار أصحابه إياه ؛ ومن كان هذا شأنه كان خليقا أن يستشعر حرارة الخيبة مضاعفة وأن يبلغ من نفسه الألم مبلغا عظيما إذا لقيه الناس لا بمجافاته وإعراضهم عنه فحسب ، بل بمداخلة آرائه كذلك ومجاهرتهم بالسوء من القول ؛ وكان كذلك خليقا أن يفضب وأن يرد عمل أهل عصره إلى القباء والجهل والجمود ، وإنه ليوقن أن ما بينهم وبينه من فرق في الثقافة والمرقة كمثل ما بين الظلمات والنور . ولقد أقصع عن مبلغ ما كان يضطرم في نفسه من حنق على قومه ، وعن مبلغ ازدراءه لإمام وسخره منهم في مقطوعتين نظمها

سنة ١٦٤٥ ؛ ففي الأولى راح يتهم ويسخر من جهل خصومه قائلا إن كتابا اسمه « ترا كوردون » أذيع في الناس من وقت قريب فبلغ من جهل بعضهم أنهم نظروا حيارى إلى عنوانه قائلين ما هذه الكلمة التي اتخذت له عنوانا ، وقرأ بعضهم فأخطأ النطق وعجز عن الهجاء ؛ ثم يعجب الشاعر من هؤلاء ويستعرض بعض أسماء ألقوها ويتساءل قائلا : لم يكون عنوان كتابه أعسر منها في أفواه هؤلاء السادة ، وقد ألفت أفواههم المسير الجاني من الكلام ، ثم يذكر أول أستاذ للغة الأغرريقية في كبردج في القرن السادس عشر ، ومعلم الملك ادرارد السادس وهو سير جون تشيك ، فيناجي روحه قائلا : « إيه يا روح سير جون تشيك ! إن عصرك لم ينفر من المعرفة إذ كنت تعلم كبردج وتعلم الملك الأغرريقية كما ينفر من المسلم عصرنا الذي يعيش فيه » .

وفي المقطوعة الثانية كان ملتن أشد حنقا وأوجع هجوا منه في سابقتها وحسبك منه قوله : « إنما جهدت أن أحمل أهل هذا العصر على أن يتخلصوا من قيودهم ، وذلك بالرجوع إلى قواعد الحرية القديمة المعروفة^(١) ، وبينما أعمل على إذاحة طغيان جوقة من اليوم والحير والقردة والسكلاب ، فقموا بي كما فعل أولئك القرويون الذين أحيوا إلى ضفادع^(٢) جزاء بما أجرموا إذ هوشوا على نسل لاتونا التوأمين^(٣) اللذين صار لهما بعد ذلك ملك الشمس والقمر ؛ وذلك الذي نالني إنما هو كل ما يتاله الرجل من جزاء إذ يلقى باللاتي إلى فصائل من العجاوات تجهد في غيابها المجرى من كل حس في طلب الحرية ، حتى إذا جاءها الحق الذي يكسبها الحرية تارت ضده وتآلبت عليه ؛ وهؤلاء إنما يمتنون القوضى إذ يهتفون بالحرية ؛ فإن من يمشق الحرية ينبغي أولا أن يكون خيرا عاقلا ؛ وإنما نستطيع أن نرى إلى أي مدى يبعد هؤلاء عن الهدف

(١) يقصد ملتن ما جاء في التوراة من تواتر عن الطلاق ، وما أخذت به الكنيسة المسيحية في أيامها الأولى
(٢) جاء في الميثولوجيا أن جونو أرغم لاتونا عشيقه جويتير على الفرار فظلت تبحث لنفسها عن مأوى ، فبينما كانت تصرب من بحيرة في ليشيا إذ صر بها بعض القرويين فأذوها وأهانوها وعكروا الماء بأيديهم وأرجلهم فضاقهم جويتير بأن أحاطهم لك ضفادع .
(٣) ولدت لاتونا بعد ذلك أبولو للشمس وديانا لاله القمر ؛ ولم يفرق ملتن هنا بين لاتونا ونسلها .

بإحلال البرسبتيرية محل الأسقفية نهائياً ، وتغيير كتاب الصلاة المتبع ، ووافق البرلمان على ذلك ، وكانت أغلبية أعضائه يومئذ من البيوريتانز المؤيدين للبرسبتيرية ، ولكن جماعة من المستقلين خالفوا أعضاء مجمع وستمنستر في بعض الأمور إذ أحسوا فيها تزمنا وشدة وطلبوا بشيء من الاعتدال ، ونشر خمسة منهم كتاباً يحتكون فيه لا إلى البرلمان وحده بل إلى الرأي العام في المملكة كلها ؛ فلما خرج ملتن على البرسبتيريز سنة ١٦٤٤ ، وأخذ يظن فيهم وهو الذي عرف بانتصاره للحرية أيد ذلك قضية المحتلين ، وأحاط البرسبتيريز بشبهة التعصب وعبادة حرية الرأي .

وقد بدأ الخلاف بين ملتن والبرسبتيريز كما قدمنا في أواخر سنة ١٦٤٤ وذلك بعد أن ذاع كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » وبعد أن نشر مقاله الذي جعل عنوانه « رأى مارتن بوسر في الطلاق » ، فقد طالبوا بمصادرة كتيبه لأنه طبعه بنير تصريح مخالفنا بذلك قانون الطبع الذي هو من صنع أيديهم والذي أرادوا به حماية نظامهم الكنسي ، قرأى ملتن إذ ذلك أن أصدقاءه يعملون على خنق الحرية كما يعمل الأساقفة ، ومن ثم دب بينه وبينهم الخلاف ؟ وهل يظل صامتا حيال سيحتهم ذلك ما لا تطبقه نفسه وما لا تنظامن له كبرياؤه ؟ وذلك ما لا يتفق مع حبه للحرية حيا درج معه منذ نشأته ، وإذا فلا بد من رد ولا يد من سيحة يكربها عليهم ويدفع بها عن الحرية ؛ ولكن البحث في الطلاق يملك عليه وقته وفكره فليدعه إلى حين ، وليجعل همه إلى كتيب يناصر به حرية الرأي ، ويهاجم فيه الرقابة على هذه الحرية هجوما عنيفا .

وبفرغ ملتن من كتيبه هذا وينشره في نوفمبر سنة ١٦٤٤ أي قبل نشر كتيبه « ترا كوردون » بنحو أربعة أشهر ويعرف هذا الكتيب باسم « إيروپاجيتيكا » ، وفيه يحتكم إلى البرلمان وإلى كل ذي رأى حر .

وبلغ من جرأة ملتن وكبرياء نفسه وتحمسه للحرية أنه نشر هذا الكتيب كذلك بنير إذن ، فكان عمله هذا تحديا للبرسبتيريز من ناحيتين ، فهو يهمل قانون الطبع الذي وضعوه وقرروه ، وهو في الوقت نفسه ينكر بكتيبه هذا الرقابة على الكتب كما تتمثل في ذلك القانون ويراها قيادا لحرية الرأي ففنده أنه يجب القضاء على هذه الرقابة « حتى لا يكون الحكم على ما يجوز طبعه وما لا يجوز لفئة قليلة أكثر مما لا يصون في

على الرغم مما ينفق من مال وما يبذل من دم^(١) . ولئن بلغ به الحنق هذا المبلغ على أهل عصره بوجه عام ، فقد كان حنقه على البرسبتيريز أشد من ذلك درجات ، وكان أسفه لما كان من موقفهم حياله أعظم وأقوى ، فن أوهى الأمور وأقبحها أن تأتي الخيبة من حيث يلمس الرجاء ، وأن تقع البلوى على يد من يطلب عنده العزاء ...

آلم ملتن وزاده غما على غم أن يعلم أن البرسبتيريز على منصاتهم وفي كتاباتهم يصفونه بالطيش ، ويقررون أنه يذيع مبادئ إباحية ، وأنه بما نشر إنما يمثل الأحماد والفسوق عن أسرار الله أم تمثيل ؛ ولكن روحه القوية لم تهن وإن أصابها الحزن ، ونفسه الأبية لم تذلل وإن اجتمعت عليه المحن ، وأقبل يهاجم البرسبتيريز كما هاجم التساوسة من قبل ، يأبى إلا أن يدافع أبدا عن الحرية في أي صورة من صورها ، والمجال اليوم مجال حرية الرأي فإحرأه أن يناصر حرية الرأي .

اعتزم ملتن أن يبيد النظر فيما كان يرى من رأى في الإصلاح الديني ، وأحس في نفسه الميل إلى مقاومة تشدد البيوريتانز وتزمتهم فيما يتصل بالدين وحياة المجتمع ، ذلك التزم الذي بلغ منتهاه عند جماعة البرسبتيريز ، والذي جعل ملتن يؤمن اليوم إن هؤلاء ليسوا أقل تمصبا ولا جودا من التساوسة ، وليسوا أوسع منهم أفقا ولا أخف حقا .

ولم يكن غضب البرسبتيريز على ملتن بسبب ما جاء به من آراء حول الطلاق فحسب ، وإنما أغضبهم كذلك جرأته في الدعوة إلى الاعتماد على العقل في تفسير الأناجيل ، وعدم التقيد بأقوال من سبق من رجال الكنيسة في تفسيره وتأويله ما لم يتمش ذلك مع العقول ووافق طبائع الأشياء .

فالمركة اليوم إذا معركة الرأي وحرية ، والمقل وكرامته ، وشخصية الفرد وكيانها ، وحسب ملتن من الفخر أن يكون في ذلك طلعة بين أهل عصره كما كان طلعة في حربه على التساوسة وفي آرائه حول الطلاق ...

وحدث بين جماعات البيوريتانز خلاف سنة ١٦٤٣ جعل لخروج ملتن على البرسبتيريز صدى أشد وأبعد مما كان يقدر له لو لم يقع هذا الخلاف ، وبيان ذلك أن مجما من البيوريتانز انمقد في وستمنستر في تلك السنة للنظر في النظام الذي تخضع له الكنيسة في إنجلترا ، أي طريقة إدارتها ، وقد قضى هذا المجمع

(١) يشير هنا إلى الحرب الأهلية الدائرة الرمن يومئذ .

بين الأيجاز والشمول كقوله : « يظل الأحمق أحمق أوفى كتاباً جيداً أو لم يؤت كتاباً قط » . وكقوله : « يجد المظهرون كل شيء مطهراً ، وليس ذلك في طعامهم وشرابهم فحسب ، ولكن في كل صنوف المعرفة الطيب منها رائحتها فلا يمكن أن تفسد المعرفة كما لا يمكن تبعا لذلك أن يفسد الكتب ما دامت الإرادة والضمير لا يتطرق إليهما الفساد » .

ويأتي ملتن بطائفة من الآراء تم عما كان يجول في خاطره بعد القطيعة بينه وبين البرستيريتر ، فهو ينكر اليوم عقيدة القدر المحتوم التي اعتنقها البيوريتانز عن كلثون وبأخذ بعقيدة الإرادة الحرة التي نادى بها أرمينيتس ويصف هذا الأخير بقوله « أرمينيس الواضح البين » وينفر ملتن من ترمت البيوريتانز وتشددهم في كل شيء ، وبعد أن كان من قبل وهو الشاعر الذي يمشق الجمال ويمسح الحياة إحساساً قوياً في حيرة بين ما تقتضيه الطبيعية وما تقوم به الروح ، نراه اليوم يعلن أن في وسع المرء أن يجمع بين الإثنين في غير حرج ، وقد كان ما تقوم به الروح عنده قبل ذلك في المحل الأول ، نجد ذلك واضحاً في قوله « لماذا خلق الله المواطنين وبشها فينا ، ولماذا خلق مسرات الحياة وأحاطنا بها ، وليس معنى ذلك أنه يبيح الاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده في غير قيد ، ولكنه يريد ألا يتشدد فيرى في كل زينة وفي كل متعة ما يوجب الروح كما يفعل الفالون من البرستيريتر ، ولقد باتوا عنده كالتساوسة حماقة وضيق عقل وسوء تمصّب كما يتضح في قوله إذ يشير إلى خفتهم حرية الرأي « إنما تخرج أفانين التساوسة براعها من جديد » .

وبعد ملتن في الواقع بعد اختلافه مع البرستيريتر من المستقلين ، بل لقد كان أكثر من مستقل ، فسوف لا يؤيد بعد اليوم نظاماً كنسياً ما أو يأخذ رأياً من الآراء لا يتحول عنه أولاً يقلب النظر فيه ؛ أو يقضى كنيسة من الكنائس غشياناً رتبياً ، وإنما تسيطر عليه روح دينية توحى إليه قواه وطهره . وإن كان مستقل الرأي لا يقبل شيئاً لا يطمئن إليه عقله ولا يتقيد بمذهب معين ؛ على أنه وإن لم يتقيد بمذهب لا ينسى كراهته للتساوسة من أشياح روما والكاثوليكية بوجه عام ، كما لا ينسى غضبه على البرستيريتر ولا اتهامه إياهم بأنهم أهداء الحرية ، وأنهم لذلك كالتساوسة عقبه في سبيل الإصلاح الحق ، وأنهم يبالغون في ترمتهم وتشددهم بمبالغة تقضى حتماً إلى النفور من مذهبهم .

التيه

(يتبع)

العلماء إذ أن كفايتهم عادة شائمة » .

وكان الكتيب في صورة خطبة مكتوبة موجهة إلى البرلمان وقد جعل ملتن شعاره عبارة مقتبسة من كلام بورييد أثبتتها بنصها الأفريقي ؛ وهو بمد خطبة فليس فيه درس وفق منهج معين أو تمحيص لما يمرض له من آراء ، أو تقص للأفكار التي يؤيد بها رأياً أو يخالف رأياً ؛ ولكنه على الرغم من ذلك أو لعله بسبب ذلك كان من أحسن ما نشر ملتن من هاتيك الكتيبات ، فهو فيض نفس نبيلة حرة ، تفهق صفحاته بكلام من خير ما كتب في الحرية فصاحة لفظ وبلاغة عبارة ورقة شعور ونبل حس وشجاعة رأي وحرية قول ...

وكان الأمل والحماسة ملء كتيبه هذا ، فلئن غاب أمله في البرستيريتر فليسوا هم كل شيء ، بل إنهم وقد نصبوا أنفسهم أعداء للحرية لم يعد لهم من الأمر شيء ، وإن إنجلترا لتتجه نحو أمل جديد تراه في شخص كرومول وهو زعيم المستقلين وخطه الظفر كما تنبأ حوادث الحرب ، وإن المستقلين جميعاً وطلاب الحرية ليلتفون حوله ، فهو في عهده أمل إنجلترا ونصير الحرية وبطلها ؛ ذلك ما كان يتحدث به ملتن إلى نفسه وذلك ثابت في كتيبه الرجاء . وزاد الأمل تمكنا من نفسه أنه وقد استمدى عليه الرقباء في البرلمان لم يمسه شيء مما أرادوا به من سوء ، إذ لم يرض مجلس اللوردات أن يشايح البرستيريتر فيها يذهبون إليه من رغبة في التضييق على حرية النشر ؛ واعتبط ملتن أيما اعتباط وارتاح أيما ارتياح إلى هذه المعاملة التي زادت ثقة في نفسه ، وبقينا من ملته مكانته في قومه .

ويحس المرء لذة قوية إذ يقرأ هذا الكتيب ، فليس فيه مثل ما في كتيباته التي أرسلها على التساوسة من غل الخصومة وعنق الهجاء ، وإنما يسوده الهدوء وحنن السياق ؛ وهو فضلاً عن ذلك قريب إلى المقلبات الحديثة بما حواه من أفكار حول حرية الرأي وحرية النشر ، وحبك منه بعض ما كتبه ملتن من قيمة الكتب مثل قوله : « إن من يقتل كتاباً طيباً كمن يقتل رجلاً ؛ بل إن من يقتل رجلاً إنما يقتل مخلوقاً مائلاً ، في حين أن من يقضى على كتاب قيم فقد قتل المثل نفسه ؛ وإن كثيراً من الناس يعيشون مائة على هذه الأرض ، أما الكتاب الجيد فهو دم الحياة الفاني ، دم كآبته ، ذلك الروح البقري ، وقد جنط ذلك الدم واخترن ككثير من لبيق ذخر الحياة بعد حياة » .

ويقع المرء فيه على كثير من العبارات اللطيفة الجميلة جمعت

ما استعمل في إنجلترا بعد الفتح النورماندى في العصور الوسطى
التي اشتهرت بانتشار القصص الشعبية الفرنسية French romances
وحظ الخيال المفرط والتأليف الخصب في هذه القصص أرفع
شأنا من حظ الوقائع المعقولة والحقائق المجردة . ذلك لأن هذه
القصص تروى ضروريا من البطولة خارقة ، ومحكي صنوفا من
المغامرات فذة ، وتتغنى بأشكال من البسالة والاقدام نادرة المثال؛
ومن ثم اشتقت لفظة رومانتيكى دلالتها من كل ما هو
خارق فذ بعيد عن حياة الواقع . واستعملها الكتاب في هذا
المعنى أو فيما يمت لهذا المعنى بصلة قريبة وثيقة . ولنضرب مثالا بما
جاء في سنة ١٦٥٤ في مفكرة ايفلين Evelyn أحد رجال البلاط
الانجليزى المرمين بمراقبة التطورات التاريخية وتسجيل الأحداث
الشاذة المعاصرة لمهده « يوجد بالجانب الآخر من جبل الألب
المهول هذا قصر رومانتيكى للغاية » . كذلك كتب سامويل
بيبس Samuel Pepys أحد الثقات في تاريخ إنجلترا في القرن
السابع عشر وصفا موجزا في ١١ من مارس سنة ١٦٦٧
للدعائس السياسية التي كان يحيك أطرافها ملك فرنسا وقال في
الختام « هذه الأمور رومانتيكية قلبا وقالبيا على وجه التقريب ،
غير أنها حقيقية فقد أفضى إلى سير هـ . تشوملى Sir H. Cholmly
بأن الملك نفسه رواها له بالأس » .

وإن دل هذا على شيء فلا يدل إلا على ثبات لفظة رومانتيكى
على المعنى الذى أسلفنا فيه القول ، واتصافها بكل ما هو ناه
قضى عن الرف والتقاليد أو نائر عصى على المألوف والمعقول .
وقد استعمل توماس سبرات Thomas Sprat هذه اللفظة في
كتابه : « تاريخ جمعية الأبحاث العلمية الملكية » ،
The History of the Royal Society للمقابلة بين منهج
البحث العلمى والبحث ، وبين منحنى التخيلات وما يشوبها من
إغراق لا غناء فيه ، قال : وسوف يكون هذا النهج يرد لأذهاننا
من التضخم الرومانتيكى Romantic Swellinq ، لأنه يكشف
لنا عن الأشياء في صورها المألوفة . وفي مثل جرحها تماما « وفي
موضع آخر يقرر سبرات أن ما أصاب العلم من التمز والمز كان على
يدى خصومه من المتحذلقين المتفلسفين الذين يرون أن العلم يصنع
الناس بصنفة رومانتيكية ، ويدفعهم إلى تصور الأشياء على

صورة أكثر كجلا مما تحتمله الأشياء ذاتها . »

ثم أقبل القرن الثامن عشر وبدت عليه فلسفتها هوبز Hobbes
ولوك hocke ظللها الوارفة ، ووجد العلم التجريبي مرثما خصيبا
وأحرز نصرا مينا ، فازداد الرأى القاتل ، بأنه في الامكان تفسير
العالم على ضوء العقل دون اللجوء إلى ما هو خارق أو الولوج
إلى ما هو غامض ، قوة وبقينا . ومصداق هذا الرأى ما جاء على
لسان هرد Hurd « إن نور العقل قد أشرق منذ عهد قريب ، وهو
يوشك أن يسيطر على أطياف الخيال الجسيمة . » هذه الأطياف
التي كانت تنزل في القلوب منزل اليقين بما لها من قوة اقتناع وشدة
تأثير ، ثم ما لبثت أن أودت بها بحجة الزمان ويد الحدتان هي التي
أجمع النقاد على نتمها بالرومانتيكية .

وقد سبق أن ألمعنا إلى ما للرومانتيكية من صلة بالمصور
الوسطى ، والآن يحق لنا أن نتساءل لماذا لم يرض هيني Heine
عن هذه الصلة من حيث هي صلة لا أكثر ولا أقل ، حين يزعم
أن لفظتى رومانتيكى romantic ومينديفال medieval مترادفتان
متكافئتان في المعنى والجواب على ذلك هو ما جاء على لسانه
« ما هي المدرسة الرومانتيكية في ألمانيا ؟ إنها لم تكن ثمة شيء
آخر غير بث شعر المصور الوسطى من مرقد ، ذلك الشعر الذى
تجلى في المقطوعات الشعرية والرسوم الزيتية والتماثيل ، وفي ألوان الفن
وصور الحياة السائدة في تلك الأوقات » ومثل هذا القول لا يطابق
الأدب الانجليزى مطابقة تامة ، فالأدب الانجليزى أوسع من أن يحده
مثل هذه الحدود والقيود . والنسب يجرذ كرمهاتى صدد التعقيب على
هيني هو أن القصة وسائر فنون الأدب في المصور الوسطى مدينة
لذلك الخيال المفرط الخصب الذى اشتهرت به المصور الوسطى ،
والذى ينبىء عن عقلية وليدة رضية من أظهر مظاهرها وأخص
خصائصها بناء عوالم من الأحلام والأوهام . ولما كانت المصور
الوسطى في إنجلترا مقرونة بتدمير الأديرة وتخريبها بمد تولى أسرة
تيودر مقاليد الحكم ، فن البديهي أن ينصرف الأديباء في
القرن الثامن عشر الذى بثت فيه المصور الوسطى من جديد
إلى الأتقاض والإطلال .

فخرى فطندى

(لبحث بقية)

مدرس بالمدارس الثانوية

في ركب الوهرة العريضة:

الأدب في فلسطين ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

طلب إلى أن أتحدث في فلسطين عن مصر ، وإن فلسطين
لمزينة على كل نفس ، حبيبة إلى كل قلب ، جذيرة أن تذكر
لدى كل باذرة ، ويستهل بها عند كل حديث .

أست إذا ذكرت ذلك البلد الطيب - أينما كنت في
بلاد الله ، في أوطان الروية والإسلام - تحولت إليك الوجوه
وتطاولت نحوك الأعناق ، وتطلعت لما تبديه القلوب والأبصار ؟
فيا لله ما أعجب !! إن في ذلك الاسم لسراً من الأسرار ، بل
إن فيه لسحراً من السحر !!

أجل . إن فلسطين لتلك ، وإن الحديث عنها لنوشجون .
إنها البلد القدس ، إنها بلد الوحي والنبوة ، إنها القبة الأولى
في الإسلام . فلا عجب أن تتشوق إليها كل نفس ، ويهفو لدى
ذكرها كل فؤاد ... وإن مسالك الحديث عن فلسطين لكثيرة ،
بل إنها لأوفر من أن يحيط بها حصر ، أو يطيف بها إلام .
فعلت أن أسلك سبيلاً ينتهي إلى غاية ، فأحدثت عن حياة
الأدب هناك .

وحياة الأدب في فلسطين حديثة العهد قريبة الأمد . فلو
ذهبت مع التاريخ غير بعيد ، لأفيناها خلواً من الأدب جملة ،
عدا ننف من هنا وهناك ، كانت تبدو على أقلام الفقهاء ،
ورجال السواوين ؛ لا يصح أن تسمى أدبياً ، كما لا يصح أن
تعتبر مظهراً من مظاهر الأدب على أية حال .

وحين نتوغل في تاريخها . نجد أنها لم تنجب - على تطاول
العصور - غير آحاد من الأفضال الذين كانوا يتمتعون بين
حين وآخر ، وفيهم الكاتب والشاعر، والمؤرخ . ومن هؤلاء :
عبد الرحيم اليسانى (القاضي الفاضل) ، وصلاح الدين الصندى
(صاحب التأليف الكثيرة) ، ومجير الدين الحنبلى (صاحب
الأنس الجليل في أعيان القدس والخليل) . وآخرون غيرهم ،

ندر أن تعاصر منهم اثنان ، فتركا أثراً بارزاً من آثار الأدب
الخالد ، وذلك إذا اعتبرنا فلسطين في حدودها التي تنحصر
خلالها اليوم .

ولعل السبب أنها بلد مقدس ، فيه المسجد الأقصى حيث
الصخرة المشرفة ، وفيه الحرم الإبراهيمي والأنبياء من أبنائه .
ولذا كان همّ من أعرض عن الدنيا وزخرفها ، أن يشد إليها
الرجال ، ليقم فيها متصرفاً إلى الله وطلب رضوانه ، مقبلاً على
تفهم كتابه رسة نبيه .

ومن هنا نبغ في فلسطين من أئمة الفقه ورجال السنة ، من
بقيت آثارهم وفتاواهم - إلى اليوم - شاهدة على ميلتهم من
هذا العلم ، وتبحرهم فيه . ومن هؤلاء : شيخ الإسلام خير الدين
الرملى (صاحب الفتاوى الخيرية) والشيخ محمد الخليلي (صاحب
الفتاوى الخليلية) ، والشيخ سعد الدين الديرى الخالدى (صاحب
السهام الخارقة في الرد على الزنادقة) ، والشيخ منيب هاشم
الجعفرى النابلسى (صاحب الفتاوى الشهيرة) . وحسب فلسطين
نغراً أن تنجب على رأس هؤلاء : الإمام الجليل (أبا عبد الله
محمد بن إدريس الشافعى النزى) الذى طبق ذكره الخالقين ،
وانتشر مذهبه في بعيد الآفاق .

« أضف إلى ذلك افتقارها إلى مغان الطبيعة وجمالها القطرى ،
وخلوها من اتساع الحضارة وارتقاء العمران . فلا أنهار تسلكها
قوارب المتزهين وطلاب التمتع ، وتنتشر على ضفافها الحدائق
والمتنزهات ومواطن اللهور ، ولا مدن كبيرة واسعة الأرجاء ،
مزهرة الحضارة ، كثيرة الأرباض ملتفة الرياض والنياض . كما هو
الحال في القاهرة ودمشق وبغداد والمدينة وقرنطة وسواها^(١) .
ومن هنا تبين أن فلسطين حديثة عهد بنهضة الأدبية ،
حتى أنه ما يزال معظم هؤلاء المؤسسين لها أحياء برزقون .
وترجو الله أن يمد في آجالهم حتى يؤدوا رسالتهم على أتم
الوجوه وأكلها .

ولعل الكثيرين من إخواننا في مصر (وغير مصر)
يجهلون أن في فلسطين نهضة ثقافية وحياة أدبية ، ولا عجب

(١) عند رأى براه أستاذنا الكبير أحمد حناى الخالدى (حميد
السلفية العزيمية في التعمير) . وليس لنا فيه غير صوغ الكلام

لنفسه ، (وكثيراً ما يأتي بروائع مدهشة) . فيبقى بعيداً عن الناس ، لا يدري خبره إلا خاصة إخوانه وصفوة خلانه ، وسأقدم بعض هؤلاء الأدباء ، وأستشهد ببعض أقوالهم مصدقة لما وصفت .

هذا ما يفعله الأديب في فلسطين ليتعرف إلى الناس ويقدم إليهم إنتاجه ، وليس كل أديب عندنا يشأى إلى نشر أده في الأقطار المجاورة ، بل قليل ما أولئك .

وهأنذا أقدم بعض هؤلاء الأدباء الذين استطاعوا أن ينشئوا النهضة الأدبية في هذا القطر ، وبالرغم من ضيق ذلك الأفق الذي يحوط بالأديب كما أسلفت ، وأذكر في طليعتهم بعض من تقدم بهم الزمن . فظهروا في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر وتركوا آثاراً قيمة بين مخطوط ومطبوع ومنهم :

الأستاذ يوسف باشا الخالدي : وقد عاش هذا الأديب حياته بين العلم والسياسة ، فكان والياً ثم مبعوثاً في البرلمان التركي ، فريساً لبلدية القدس ، كما كان مدرساً في فلسطين ، ثم أستاذاً للربية وآدابها في جامعة (فينا) ، وهناك ألف كتباً عدة ، بعضها مخطوط وبعضها مطبوع . ومنها كتاب كان الأول من نوعه ، استنبط فيه قواعد اللغة الكردية ، وأسماء (التحفة الحميدية في اللغة الكردية) ، ومنها كتاب آخر اسمه (أنا) وهو مجموعة مذكرات وآراء ومعالجات شتى . كما شرح ديوان لبيد وجمع متفرقه وطبعه في (فينا) . وله عدا ذلك أبحاث شتى ومحاضرات عدة ، وقد أقام في الآستانة سوقاً أدبياً أسماه (عكاظ) ، وآزره فيه بعض معاصريه من الأدباء .

والأستاذ بندلي صليبا الجوزي : وكان هذا الأديب اللغوي أستاذاً للربية واللغات السامية في جامعة (قازان) في روسيا . ثم في جامعة (باكور) . وله مؤلفات عدة أهمها : (الحركات الفكرية في الإسلام) و (الأمومة عند العرب) و (أمراء غسان) . وجميعها مطبوع . والكتاب الأخير منها يكاد يكون تاريخاً للمسيحية المربية في بلاد الشام ، ولله أسهدف ذلك في تأليفه .

ومن أبرز ما يمتاز به هذا الأديب صبره البالغ عند العجب ، وجلته المفرط على البحث الدقيق ، والتحرري في تحقيق ما أشكل وانهم .

فأنا نكاد نعيش في معزل عن العالم العربي ، لقلة وسائل النشر عندنا . فلا مجلات شهرية تضاهي (المقتطف) و (الهلال) ، ولا مجلات أسبوعية تماثل (الرسالة) أو (الثقافة) . اللهم إلا مجلة واحدة ، كان يصدرها قلم الطبوبات (شهرية) ، إبان الحرب الأخيرة ، واسمها (المنتدى) . وكان معظم ما ينشر فيها بأقلام مشاهير الكتاب من مصريين وسوريين ، وبعض الفلسطينيين ، ولذا لا تعتبر صورة صادقة عن الأدب الفلسطيني الخالص (١) .

كما أنه ليست هنالك دار للنشر تضاهي (دار الكتب) أو (دار الهلال) ، خلا دار حديثة ناشئة ، قام على تأسيسها جماعة في (يافا) ، وهي تصدر سلسلة شهرية من كتيب صغير ، على غرار سلسلة (اقرأ) في مصر إلا أن هذا الكتيب ينقص كثيراً في حجمه عن كتيب (اقرأ) ، بالرغم من أنه يساويه بالثمن ، وقد صدر من هذه السلسلة إلى الآن خمسة أعداد على ما أذكر . إذن ماذا يصنع الأديب الفلسطيني ليعرفه الناس ويعرفوا آثاره الأدبية ؟ إن أمامه واحداً من السبل التالية ، وليس له عنه منتدح :

فأما أن يطبع كتابه أو ديوان شعره من خاص ماله ، ويعرضه في الأسواق (مجازفة) ويرتقب حظه ، ولا يقدم على هذا في الغالب إلا للموسرون من الأدباء . وهؤلاء كثيراً ما يصادفهم النجاح .

وإما أن يهتبل فرصة ملائمة ، تسوقها مناسبة من المناسبات . ويبادر فيحتجج إلى نفسه هذا المجال المحدود الذي تعده الصحف اليومية لذلك ، (وعندنا منها صحيفتان هما الدفاع وفلسطين (٢)) ، فيملأ ذلك المجال بشعره أو بنثره الذي أعده لتلك المناسبة .

وإما أن يتربق بمقامه في (محطة الأذاعة الفلسطينية) ، ليحاضر الناس من وراء المذياع بشيء من أده . وهذه المحطة تعد في برامجها أحاديث أدبية ، يقدمها في الغالب أديب فلسطيني أو أدبية فلسطينية .

وقد يتجنب الأديب هذه السبل جميعاً فينظم أو يؤلف

(١) عادت هذه المجلة أخيراً تصدر أسبوعية وتملك ملكاً جديداً كما صدر أيضاً عدد من المجلات مؤخرأ . سأتناولها جميعاً بالوصف ، حين يستوجب الحديث ذلك .

(٢) صدر أخيراً صحيفتان جديدتان مائزتان في طريق الاستكمال .

ويلتا لو علموا . . . !

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

من كتاب الصبر ، من سفر السنين

صفحات عند أخرى يتلون
ما حوى مسطورها غير الآتين
عبراتي في حواشها جرت
يا لعمري رقت منهل
جزتها نساء وعشرين فهل
غير كأس الشجوة طقتي السنون
مرست لي الصاب في شهدي الصبي
ومن الأفراح عاضتي شجون

ويقولون : نحدي واقفاً
وانمى بالمر ، ما المر سوى
يتصدى نارة جهم الرؤى
هو ذا الواقع ، حلم طار
وإذا يسرى وجيماً راعياً
وابسعى ، فالزهر رفاف التدى
قيد الروح بأغلال السذاب
غفوة العين على حلم كذاب
وهو طوراً ذو خيالات عذاب
فاغنميه كلاً له وطاب
فتخديه بأفراح الشباب
وانمى فالنصن ريان الأهاب

ويقولون : اسدحى وانطلقى
حسب الحمانك ما أرسلته
أبىكاه والتياماً وأسى
والصبي طير طروب روحه
خاطف عما قليل ظله
حين لا النوار نعام الشذى
من إساد الحزن ، من قيد الذكركر
من شجا فيها ودمع منهر
والصبي فرحة أيام العمر
غرد ما راح ، شاد ما بكر
إذ يوانيه الخريف المنتظر
لا ، ولا الروض أتيق مزدهر

ويلتا لو علموا كيف هوى
الدياجى طبقت آفاقه
من رآه قلقاً في وكره
إن هفا بيني انطلاقاً كسرت
أز شدا قام الشجا مترضاً
... ..
كيف يشدو؟ كيف يهجو وطى
ريشه يجرى نجميع من عماء

والأستاذ روجي الخالدي : وقد تنقل هذبا الأديب في دراسته الأولى بين الآستانة وأوردية ، وكانت له محاضرات في جامعة (السوربون) ثم أقيم محاضراً في (جمعية نشر اللغات الأجنبية) بباريس . وكان عضواً في مؤتمر المشرقين ، ثم قنصلاً تركياً في (بوردو) بفرنسا .

ومن تصانيفه القيمة : (العالم الاسلامي) و (علم الأدب عند الأفرنج والمغرب) و (الانقلاب الثاني) و (رحلة الأندلس) و (المسألة الشرقية) . وجميعها مطبوع . ومن كتبه المخطوطة : (علم الألسنة) و (تاريخ الصهيونية) وهما في المكتبة الخالدية في القدس .

ثم الشيخ يوسف النبهاني : وهو أديب فقيه شاعر . نزع من قريته (اجزم) قرب حيفا إلى بيروت ، وهناك التمع واشتهر وكان راسخ العقيدة شديد التمسب في دينه ، وتبدو آثار تعصبه هذه في معظم ما صاغه من شعر وأبدعه من نثر .

وله مدائح نبوية كثيرة ، تكاد تكون معظم شعره . وكانت تربطه بالأمير شكيب أرسلان صداقة وثيقة المرى ، تتجلى بما كانا يتبادلانه من شعر ونثر . كما كانت تربطه بالأستاذ فارس الشدياق أوامر لفة ومودة ، حملته على أن يرثيه حين موته بقصيدة رائمة قال فيها :

كم من مشاكل أعيتني فأوضحها

وقال هاك فكاد الطفل يحكيها
وله قصائد (أيضاً) غاية في متانة السبك واختيار الألفاظ ، إلا أنها قيلت في هجاء الأئمة الثلاثة المصلحين ، (جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا) وهم أعلام الهدى والفضل كما تعلم !!

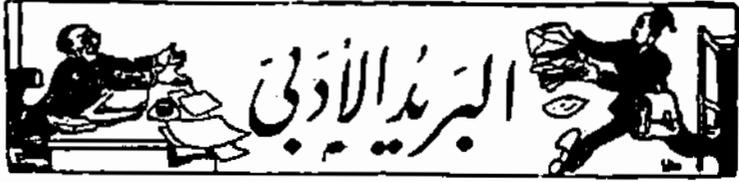
ومدح الشيخ الصيادي بقصيدة يقول فيها :

وعمت دار الملك أحسب أنها إلى اليوم لم تبحر إلى المجد سلما
فألفيت فيها أمة عربية يرى الترك منها أمة الزبح أكرما
وللنبهاني كتب كثيرة ، أذكر منها كتابه (الأنوار الحمديدية ^(١)) .

(له نكلة) محمد سليم الرشيد

(ماجستير في الأدب واللغات السامية)

(١) الأستاذ (إحسان النشاشيبي) أديب العربية الأكبر معيب هذبا الشيخ إلهاماً بطوق الرفف . ويقول - حفظه الله - : إنه لو نأى لي غير يشته لكان (على خبره) من أنماذ شوق وحافظ



مخطئة هؤلاء اللحنين كما جنح إليها كثير من المحققين أمثال ابن مالك وصاحب القاموس وغيرهما أن يقابل الدليل بالدليل ، ويثبت سماع القطع مع (لا) عن العرب الذين يستشهد بكلامهم في هذا الموضوع كما فعل ابن مالك في

شرح التسهيل حيث أثبتته في قول الشاعر :

جواباً به تنجو اعتمد فوريتنا لمن عمل أسلفت لا غير تسأل
ولكن الأستاذ رعاه الله أغفل هذه الناحية واكتفى بمرض (جريدة) من استعمال المؤلفين (ومنهم المرى موضع النزاع) وهو يعلم جيداً أنها ليست بالحجة القاطعة في حاججة المانعين ، وأنها إن أقنعت أمثالي من القلدين فلم تنفع أمثال السيراني وابن هشام من زعماء النحو المجتهدين ، فياجبذالو أن الأستاذ أعاد الكرة ، واستظهر دواوين العرب ورسائلهم قريباً يكثر فيها على شواهد أخرى تؤيد الشاهد ابن مالك الآنف الذكر الذي وصفه الدمامين بأنه شاهد غريب وما ذلك على همته العالية (وهو ابن يجدها) بعزير ، والسلام عليه ورحمة الله .

عبد الرحمن الظاهر (طرابلس الغرب)

١ - بيانه :

نقلت ست جرائد في مصر والعالم العربي ، مقالتي الثالثة عن (يوم الجلاء) المنشورة في الرسالة ، وعلق أكثرها عليها تعليقاً لم أجد معه بداً من أن أبين (للحقيقة والتاريخ) أن الزعيم السوري إبراهيم بك هنانو قد توفي من عشر سنين .

٢ - تنبيه بالحق :

أهدى إلى من القاهرة العدنان الأخيران من مجلة (شباب محمد) فوجدت فيهما من صدق اللهجة ، والصدق من الحق ، وإصابة المحز ، ووصف حقيقة الداء ، ما جعلني أقول :
هذا ما أراده المسلحون فأخطأوه ، وحاموا حوله فلم يبلغوه .
فلتقائين على هذه المجلة - وإن كنت لا أعرف أحداً منهم - شكركم وإكباري ، وأسأل الله أن تكون أفعالهم كأقوالهم ، وأن يكثر في مصر من أمثالهم .

مول (لا غير) :

نشرت (الرسالة) النراء في عددها ٦٧٦ رداً ضافياً للأستاذ الجليل الناشبي انتقد فيه تعليقه الأستاذ المدني على (لا غير) الواردة في (عبث الوليد) ومما جاء في هذا الرد قوله : (وإن خيل أنه جاء من أعمال (لا) عمل (ليس) ، فاللحن نفسه يسطر) الخ ...

وهنا مع تقديري للأستاذ الجليل وإعجابي بنقله وتحقيقه أرى أن في رده هذا ما يحتاج إلى التعليق فأستأذن حضرة في إبداء الملاحظة الآتية :

يرى لثيف من النحاة كالسيراني وابن هشام أن كلمة (غير) لا تقطع عن الإضافة لفظاً إلا إذا تقدمتها (ليس) ، وفي غير هذه الحالة لا يرون القطع لعدم سماعه عن العرب ومن ثم لحنوا من يقول : (لا غير) لتجاوزها بالقطع مورد السماع قال السيراني : الحذف إنما يستعمل إذا كانت (غير) بـ (ليس) ، وإذا كان مكانها غيرها من ألفاظ الجحد لم يجوز الحذف ولا يتجاوز بذلك مورد السماع .

وقال ابن هشام : (ولا يجوز حذف ما أضيفت إليه (غير) إلا بعد (ليس) قطعاً كما مثلنا وما يقع في عبارات العلماء من قولهم : (لا غير) فلم تتكلم به العرب) .

وقال الأشموني في تنبيهات الإضافة : « الثاني قالت طائفة كثيرة لا يجوز الحذف بعد غير (ليس) من ألفاظ الجحد فلا يقال قبضت عشرة (لا غير) » .

وبهذا يتضح جلياً أن اللحن لم يجرى في نظر هؤلاء اللحنين من أعمال (لا) عمل (ليس) كما ظن الأستاذ الجليل حفظه الله وإنما أتى من مجاوزة مورد السماع في القطع كما مر آنفاً ومن هنا كانت إطالة الأستاذ في الاستدلال على جواز أعمال (لا) عمل (ليس) جهاد في غير عدو ، وكان على الأستاذ وقد جنح إلى

وما أصابها من إسفاف وتبذل ، حيث أننا نطلق الآن عليها هذا الإيم من باب التجاوز لا من باب الحقيقة ، فإلى الإظهار من مظاهر العبث والأحلال الخلقى يتمثل في فئة من الشباب قد عجزت عن تحصيل عيشها من طريق مشروع ، فانطلقت تملأ الجو بما من الله به عليها من هذا (الفن) الذى نخشى أن يؤدي بنا يوماً إلى العار المطلق والسقوط الشنيع .. !

هذا ، علاوة على ما شاع في الأغاني من عبارات لا يقصد منها إلا استفزاز الغريزة واستتارة الشهوات بأقبح أساليب التعبير وأحط ضروب الكلام !!

فهل يمكن أن نأمل لهذا الحال صلاحاً ؟ إننا نهيىب بولادة الأمور أن لا يتركوا الأمور تجري على هذا الحال الشين ، وأن يعضوا حداً لهذا الشر الشائع والفساد المنتشر ... فقله إذا صحت الموازين ، واستقامت الأحكام أن تجنى البلاد ثمار عبقريتها الضمورين وأفذاها الخاملين !!

عبد الحليم أحمد عبد العال
معيد فؤاد الأول للموسيقى العربية

الإدارة الهندسية القروية بأسوان

تقبل عطاءات لناية ظهر يوم الخميس
٥ سبتمبر سنة ١٩٤٦ عن :-
١ - عملية إنشاء ثلاث دورات
مياه مساجد بمر كزى إدفو وأسوان
٢ - عملية إنشاء دورة مياه مسجد
بيوى ببلانة مركز عنييه وتطلب
الشروط والمواصفات من الإدارة على
ورقة مدموغة فئة الثلاثين ملياً نظير جنية
واحد لكل عملية والإطلاع على الرسومات
مجاناً بالإدارة أو بمصاحبة الشئون القروية
بالتاهرة
٥٧٩٨

٣ - خطأ تاريخى :

في (قضية سمرقند) لعل الطنطاوى (الرسالة ٦٨١) خطأ تاريخى ، والصواب فيه أن قتيبة بن مسلم لم يدرك أيام عمر بن عبد العزيز ، وأن العامل على سمرقند في تلك الأيام هو سليمان بن أبي السرى .
نبهت على ذلك قبل أن ينبه عليه غيرى .

على الطنطاوى

الموسيقى والغناء الشعبى :

يظن بعضهم أن الغناء الشعبى نوع من الموسيقى السهلة يستطيع أن يدخل في مضارها كل من أوتى حظاً قليلاً من المعلومات الفنية ، وهم في هذا لاجالة خاطئون ، فإن الموسيقى الشعبى مضطر إلى مراعاة أمور كثيرة في فنه قد لا يلتزم فيها غيره منها دراسة نفسية الشعب والتزام حدود الأخلاق فيما ينتج من فنه فوق ما يحتاج إليه من قدرة في التصوير وثقافة علمية وموهبة فنية . ثم هو يمتاز بمد ذلك بصفاء النفس وشعور خلق من التقيد الذى يفسد سذاجة الطبيعة ، وبهذا تتحقق الناية من فنه ، وهى الارتفاع بنفسية الشعب وترقية أخلاقه وتهذيب مشاعره . . .

فالموسيقى إذن أداة من أدوات التهذيب لا تقل في أثرها عن فن الكاتب وأساليب الصلح ، فهى أسهل مدخلا إلى النفس ، إذ لا يبذل المتعمق ما يبذله من جهد في الاستمتاع بسائر الفنون الأخرى التى تتطلب منه جهداً عقلياً ، بل هى تنفذ مباشرة إلى النفس دون وساطة العقل .

من الفنانين الذين قد اجتمعت لهم تلك الخصائص الفنان العظيم المرحوم الشيخ سيد درويش ، تلك المبقرة النادرة التى هى من أعظم مصادر نفوسنا ، والتى لا نفتأ نحس بالمعظمة ونشمر بالمزة كلما ذكرناها ...

ولكن كم يزداد أسفنا حينما ننظر الآن إلى موسيقانا الشعبىة

يؤدونه لساحبه الفلاح ... وكان «سيمون» يكسب
رزقه من عمله في جهد وجهد ، وينفق كل ما تمسكه أنامله
من دراهم على إطعام عائلته ، وما أندر الخبز في ذلك الحين !
وكان للرجل وزوجته مدرعة من صوف يرتديها كل

منهما حيناً في الشتاء ، حتى رثت وبلبت ، وقد تقضى عام وهو
عازم على شراء مدرعة أخرى ، فأن أقبل الشتاء ، حتى أمكنه
أن يقتصد بمضاً من المال : ثلاث « روبلات » غبابة في صندوق
زوجته ، وخمس « روبلات » وعشرين « كوبك » يدين بها
بعضاً من زبائنه !

وتهبأ ذات يوم ليؤم القرية ، فارتدى « مطرف » زوجته
على قيصه ، ثم ليس ثيابه الأخرى فوق ذلك ، ووضع الثلاث
« روبلات » في جيبه ، واقتطع لنفسه عصاً يتوكأ عليها ، واتخذ
سييله إلى القرية بعد أن أظفر ...

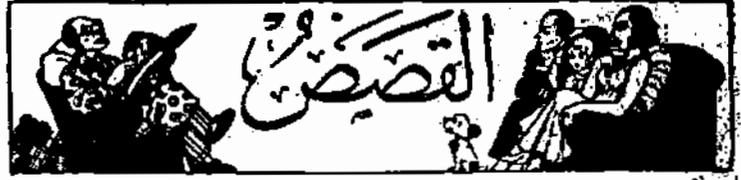
وفي طريقه راح يحدث نفسه : « سوف أحصل على الخمس
« روبلات » وأضيفهما إلى الثلاث « روبلات » فيصير ما بي
كافياً لشراء مقدار من الصوف لمدرعة الشتاء ! »

ولما بلغ القرية بعد لأى طرق باب أحد الفلاحين فلم يجد
بالدار ، ووعدهت زوجة الفلاح أن النقود سوف تصله في الأسبوع
القادم ! وطرق « سيمون » باب فلاح آخر ، فأقسم له هذا أن
يديه صفر من المال ، وسيدفع له كل ما معه « عشرين كوبك »
قيمة إصلاح حذاء قام سيمون برتقه !

فأول « سيمون » أن يشتري « صوف المدرعة » بما معه ،
وبقرض يؤديه بعد حين ، فرفض البائع قائلاً في صوت ساخر :
« إيتني بالمال ، وسوف يكون لك ما توده من الصوف ، فإنا نعم
كيف يحصل المرء على دينه ! »

فأحس سيمون بالخور يسرى في جسده ، والقنوط يتسرب
إلى فؤاده ، فقام إلى حانه حيث نهب كأساً من الخمر بعشرين
« كوبك » ، ووقف راجعاً إلى داره !

كان للخمر أثرها في سيمون ، فسرى الدفء في عروقه ،
وزادت من قوته وتشاطه . فراح يفكر : « إني أحس بجوانحي
تحتلج دفناً وحرارة ، مع أني لست مرتدياً مدرعة من الصوف ،
لقد تناولت قطرة من الخمر فكان لها أثر النار تسرى جاراتها في



قصة من الأدب الروسي الربع :

الملاك ...

للأستاذ الروسي الكبير لوى تولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

[ولد تولستوى — فيلسوف روسيا العظيم — في ٢٨
أغسطس سنة ١٠٢٨ من عائلة مريضة « أرستقراطية » وكان
شغوفاً بالعلم ، مكباً على الأدب محباً للحكمة ... فلما رأى
ذلك البؤس الذى يحيط بالفلاحين ... وشاهد تلك النعاسة
التي تكثف الهال ... اتبثق في فؤاده نور الحق ، وتطجرت
في قلبه عيون الرحمة والطف ، فقد في نفسه ألا يهدى به
حتى يقوم على إسعادهم ، ولا يسكن فؤاده حتى يصل على خيرهم .
وظل — طيلة حياته — يكافح في سبيلهم ، فماش في أملاكه
زرعها وقسم ما تله بين الفلاحين ، ثم لم يلبث أن تخل عنها
ووزعها بينهم ... وآتم — آخر أيامه — بالإطعام ...
فاختفى رداً من ا من .

ويعد « تولستوى » التطب الأول والكتاب الأكبر في
روسيا ... وتعد كتبه « الأناجيل الأولى » للتورة المشفية ،
التي بنى ينورها ... غير أنه لم ير الترس وهو يتوى على
ساقه ، فيجز روسيا ويهز العالم أجمع ... فقد قضى في ٢١
نوفمبر سنة ١٩١٠ .

وما زالت كتبه — وقد شاعت في أرجاء العالم — تظفر
بكل إعجاب وإجلال . ومنها « البحث » و « القيامة »
و « الحرب والسلام » و « أين المخرج » ...

وهذه القصة — التي تبسطها اليوم على صفحات « الرسالة »
النراء — من أروع الأمثلة على ما كان يفيض به تولستوى
من الحب السيق والوصف الدقيق لحياة عائلة من تلك الطبقة
التي كرس حياته لرفقتها وضررتها ...

وقد دعتنا الضرورة إلى تخوير العنوان التي مررت به
هذه القصة وهو « what Men Live By » أى « بماذا
يعيش الناس ؟ » [م - جميل]

كان الاسكاف « سيمون » يعيش مع زوجته ، وأبناؤه في
شغل من العيش يسكنون كوخاً صغيراً مغبراً ، يأجر من المال

ولعله يثب على ويخنفني . وحينئذ لا تنفك رحمتك ولا تشفع لك شفقتك ... وماذا أنا فاعل بإنسان عار؟! لست بمستطيع أن أخلع عليه مالا أملكه . دعه فلهما شأن معه! وأسرع سيمون في خطاه لا يلوى على شيء . بيد أن ضميره أخذ يؤنبه . فتوقفت خطاه . وأخذ يهس في حيرة وبهمهم في وجل : « ماذا أنت فاعل ياسيمون؟! هب أن الرجل بلفظ آخر نفسه ! . ألا تتق الله في فرارك منه ورغبتك عن عونه ! ! أأنت في وفر من المال حتى تخشى أن تسرق؟! باللمار ياسيمون . ! » فانقلب آيباً إلى الرجل ونفسه مضطربة وقلبه يخفق ...

دنا سيمون من الرجل التريب ، وراح يجيل الطرف فيه .. فرآه شاباً على جمال وحسن ا وليس على جسده أثر لجرح أو شج وقد جلس ثم متمداً ظهره إلى جدار الكنيسة لا يرفع طرفه إلى سيمون من الوهن والضعف . فلما أحس بسيمون رفع رأسه إليه ، وألقى إليه بنظرة . كانت كافية لأن تستدر كل ما يختلج بين جوارح سيمون من عطف ورفق وحب . فنقل حذاءه . وألقى عن نفسه رداءه . وقال في صوت خفيض فيه حنان وفيه راقية : « ليس تمت مجال للحديث ! ! . هيا إرتد هذا الثوب . » وأميك سيمون بمنكي الرجل ، وأعانه على الهوض ...

فلما نظر إليه - حيناً انتصبت قامتة - ألقاه ... مديد المود ... جميل الوجه ... فألقى على كتفيه رداءه وأعانه على لبسه وهم « سيمون » يخلع قبته ليضعها على رأس التريب . فأحس برأسه بقشعر من البرد فقال في نفسه : « إني أصلح ! . أما هو فله غدارٌ مقوصة فلا خوف عليه ! . بل يحسن أن ألبسه حذائي ... » فأقر قبته على « صلته » وأجلس الرجل . وجعل حذاءه في قدميه ... وهو يقول في جرس طيب عطوف « هيا . أيها الصديق . استشر البقاء ودع باقي الأمور تجري وفق مرادها أفي قدرتك أن تسير !؟ »

فنهض الرجل ونظر في امتنان إلى سيمون دون أن ينبس بينت شفه فقال سيمون : « لماذا لا تتكلم !؟ إن البرد لقارص فلا بد من المودة إلى المنزل نوكاً على عصاي وإلا أحسبت بوهن وخوار . خاعتمد على ساعدي ... »

عروق ، فليست بحاجة لمدرة من الصوف أقي بها جسدي زمهرير الشتاء ! ! »

ليت زوجتي ترتشف قايلاً من الخمر . فتحس ما أحس ! ! صه ... وبلك ... أتود أبها الرجل أن تقضى عليك زوجتك إن خبرتها أنك تناولت بعضاً من الخمر ... إنها سوف تحطم الآنية على رأسك الفاضل .. ! . ياله من سائل عجيب يدفع النشوة إلى الروح والحرارة إلى الجسم ! ! . لست أبالي شيئاً ... ولكن زوجتي سوف تكتتب ويؤلها أتي عدت دون صوف المدرة ! . ليس على من جناح ! ! ... فقد طلبت حتى فأنكره واحد . وأعطاني الآخر عشرين « كوب » ... هه ... وماذا أنا فاعل بها !؟! لست أدري غير أن أشرب بها ... إن الواحد من هؤلاء يملك الأرض والدور والحيطان ... ثم يبخل على بحتى حتى الذى أعمل سحابة يوى وجنحك من لئلي كي أظفر به ... فإذا ما انتهيت أنكروه على بالمار . إن الواحد منهم ليعم بالدقيق والطعام أما أنا فأففق ثلاث « روبلات » كل أسبوع للخبز وحده ... فإذا ما عدت إلى الدار وجدت الخبز قد أكل فأيت على الطوى ! . وهل أمك غير ذلك !؟ ومن أين آتى بالنقود ؟! أمن « هؤلاء » الناس الذين لا يقيمون عن الطعام إلا وقد أصيبوا بالقلقة ! ! »

كانت تلك الأفكار والخواطر تضرب بين جوانحه . حين أدرك - في سيره - الكنيسة في منطف الطريق . فرأى جسداً كالثلج في نصاعته ! : فراح ينم النظر دون أن يتحققه أيبكون ثوراً ! . لا ليس شبيهاً بالثور ! . إن له رأساً يشبه رأس الإنسان ! بيد أنه ناصع البياض ! ... »

واقترب منه حتى أمكنه أن يجتلي الأمر ! . وكم كانت دهشته حين أدرك أنه إنسان عار ... يجلس إزاء الكنيسة في سكون يدفع الرهبة إلى القلب .. فطار فؤاده هلماً ، وتلبسه الخوف فرماً : « لا بد أن أحدا قد قتله .. وخلفه هنا... سوف أمسك على فضولى أو أصاب بأذى ... »

وأطلق في سبيله ولكنه التفت إلى ما وراءه فرأى الرجل الجالس ينظر إليه ... فراح ذلك سيمون وزأه من جزعه . « أعود إليّة أم أطلق !؟ إن أنا حدثت إليه فسوف يحدث مالا يرضيني . بل يجلب الضرب إلى نفسي فما وجد تحت إلا لسوء .. »

وخطأ الرجل في تمب وجهه . وفي خلال السير رفع سيمون
صوته قائلاً :

« من أين أنت ؟! »

— « لست من هذه البقاع ! »

« كذلك حدثت . فإني أعرف القوم هنا .! ولكن كيف
قدر لك أن تصير هكذا جوار الكنيسة ؟! »

« لست أدري ! »

— أساء أحد معاملتك ؟!

— لم يتعرض لي أحد بسوء ؟ لقد عاقبني الله ...

دون ريب ... هذا هو حكم الله . سوف تجده عيشاً ومأوى
أيها ذهبت ! فأين تروم ! »

— لست أدري ! . »

فتولى سيمون اللعش . فما كان الرجل صاحب سوء أو خبث
وتجلى من لهجته أنه خالص القلب . ولكنه لا يعلم عنه شيئاً .
« من يدري ما سوف يحدث !! » والتفت إلى صاحبه وقال :

« حسناً ! . تعال إلى داري على الرحب والسعة .! »

هبّت الريح عاتية ، فياضة بالصقيع . فسرت الشعريرة في
جسد سيمون بعد أن أفاق من نشوة الخمر وذهبت عنه حرارته
فأخذ يدرّ نفسه برداء زوجته بعد أن خلع رداءه ... وراح
يتحدث إلى نفسه : —

« والآن ، وقد ذهبت الخمر ، أعوزنا صوف المدرعة ، لقد
انطلقت اليوم كي أعود بالصوف ، فاعدت بالصوف ولا بردائي
أنا ، وفوق ذلك أتيت مي رجل عار ! سوف تستاء « مترونا »
من ذلك ! »

وحينما جالت بفكره « مترونا » زوجته أحس بالانقباض
والألم يتغلغل في جوانحه ، يبد أنه عندما ذكر صديقه الغريب
ونظرتة إليه في امتنان وحمد رقص قلبه بهجة ومراحاً ...

نهضت « مترونا » زوجة سيمون ... ذلك اليوم بعبه
واجبها التزلي خير نهوض وانتهت من عملها مبكرة ... قطعت
الأخشاب ... وحملت الماء ... وأطعمت الصغار ... وتناولت هي
وجبتها ... وجلست رقب أوفة زوجها ... واراحت تماثل نفسها :

« أيكفي الخبز ... أم عليها أن تعمل بعضاً منه الآن ... لو
أن « سيمون » تناول طعامه في المدينة ... ولم يكن في حاجة
للخبز في المشاء ... فسوف يمتد أجل الخبز يوماً آخراً ... لست
بقادرة اليوم على أن أصنع خبزاً ... وسوف أدبر كل شيء حتى
يكفيننا إلى يوم الجمعة القادم ... » .. ووضعت مترونا قطعة الخبز
الباقية في مكان حرير ... وجلست ترتق ثياب زوجها ... وفي
غضون ذلك راحت تفكر كيف يشتري زوجها صوف المدرعة كي
تقيهما برد الشتاء ...

« آه ... لو أن البائع لا يخذعه ... أن زوجي لقر ... أسهل
على من يقوده ... إنه لا يخذع أحداً ... ولكن الطفل يستطيع
أن يعبث به ... نمانى روبلات مقدار كاف لشراء أجود الأصواف
وأمتها ... ! كم كنا نرتعد برداً ونرتجف من الصقيع في الشتاء
الماضي ... وما كنت أستطيع أن أهبط النهر أو أذهب إلى مكان
آخر ولكن لقد بكر سيمون في الذهاب ! ! وما عاد إلى الآن ...
أمل أنه لم يذهب إلى الحانة ! ! . »

ما كادت « مترونا » تردد هذه الخواطر في ذهنها ... حتى
طرقت أذنها أصوات وأحست أن بعضهم دلف إلى الدار فقامت
تجتلي الأمر ... فأبصرت رجله : سيمون زوجها ، وشخصاً
آخرأ . عارى الرأس ينتمل حذاء زوجها ! ! لم تره من قبل ! . «
وحينما لاحظت أن زوجها تفوح منه رائحة الخمر ... وليس
عليه رداءه ... ولا يملك بيده حزمة من الصوف ... أخذ حرجل
غضبها يفور ...

وأفصحت لها حتى دلفاً أمامها ، ثم تبعتها ... ووقع بصرها
على ذلك الرجل الغريب وقد لبس رداء زوجها ... فلما دخلا
الفرقة وقف الرجل الغريب لا يتحرك ولا يرفع بصره إليها ...
فقال في نفسها « لعل السكر أخرسه وذهب بقله ... »
وعبست برجها وقطبت جبينها ... ووقفت جوار « التنور »
ترقب ما سوف يملان ... !

وخلع « سيمون » قيمته ... وجلس على أحد المقاعد ...
وكأن الحال يجري على ما يرام .

— « هيا مترونا ! ! إن كان المشاء معداً ! ! قاتينا به .! »
فزعجرت « مترونا » كالنبوءة الغاضبة ... ولم تتحرك من مكانها

سر ذلك، الرجل الغريب فقالت لسيمون:

لو أنه رجل مهذب لما أعجزه أن يستر نفسه بثوب يشتره !
أيمكنك أن تخبرني أين عثرت « عليه » ؟ !

— هذا ما كنت على وشك أن أخبرك إياه ... حينما
أدركت الكنيسة وأنا في سبيل المودة — أبصرته جالساً عازياً
يكاد أن يتجمد من البرد والصتيع ، فقد بعثني الله إليه قبل أن
يقضى عليه الجوع والمرض ، فاذا كان على أن أقمه سوى أن
أخلع ثوبي وألبسه إياه وآتى به منى ؟ فما كان له من مأوى !
ما الذي يدرينا كم كان يلاقى من العذاب الشديد ؟ لا تنظري
يامترونا ، إن هذا ذنب غير منتفر ، واذكري أننا سوف نموت
جميعاً يوماً ما !

وارتفعت ألسان الغضب إلى شفتي « مترونا » ، ولكنها
ما لبثت أن ماتت قبل أن تلفظها ، فقد نظرت إلى الرجل الغريب
وهو جالس في سكون ووداعة على مقدمه ، يدها معقودتان على
تخديه ، ورأسه ساقط على صدره ، وعيناه مغمضتان ، وجبينه
مقطب ، كأن الألم ينمش فؤاده فينمكس على صفحة وجهه !
فصمت « مترونا » على مضض ... وقال سيمون في صوت
شاع فيه الرجاء والأمل : ألا تحبين الله يامترونا ؟ !

فما سمعت « مترونا » هذه الكلمات ، وأتت طرفها ثانية إلى
« صاحب الغريب » حتى فاض قلبها إيماناً ... وراحت الرحمة
تدب في نفسها ... وأخذ الحنان والمطف يهز فؤادها ... !

فذهبت إلى « التنور » وأتت بالطعام ... ووضعت قدحا على
المائدة وصبت فيه بعض الشراب الساخن ثم أحضرت قطعة الخبز
من مخبئها ومعها سكينان وملقتان ... وقالت في صوت يفيض
عطفاً . تفضل فتناول بعض الطعام ... !

وأدنى سيمون المائدة من صاحبه . وقتت الخبز ووضعه في
المرق وراحا يأكلان .. وجلست مترونا في جانب من المائدة !
ترقب الضيف في نظرات فاحصة . فزاد عطفها عليه ورأفتها به .
وحينئذ أشرق وجه « الغريب » وأضاء . فكأبه البدر يرفل
في حالة بالسما . ورفع عينيه النجلوين إلى « مترونا » ونظر
إليها نظرة وديعة . وافتقر ثغره من ابتسامه حلوة عذبة ...

مصطفى جميل مرسى

(يتبع)

جوار التنور — فرأى سيمون بوادر الشر تلوح في وجه
زوجته ... فأراد أن يهديء من روعها ويظهر أنه لم ير شيئاً ...
وقدم لصاحبه كرسيًا وقال له في صرح « اجلس ودعنا نصيب
شيئًا من الطعام ... ! هيا « مترونا » أما أعددت لنا شيئاً ؟ ! »
كانت نفس مترونا تلمب غضبًا وتغلي حنقًا فانفجرت قائلة :
— « بلى ... لقد أعددت الطعام ... ولكن ليس لكما ... !
يخيل إلى أنك أنفقت نقودك في الشراب ... لقد ذهبت كي تحضر
صوف المدرعة ... فاعدت إلا ومعك شريد عازر عرييد ...
ليس لدى طعام للسكري ... ! »

— « كفى مترونا ... أمسكي عليك لسانك ... ! يحسن
بك أن تسألني أي إنسان هذا ؟ »

— بل يحسن بك أن تخبرني ما ذا فعلت بالنقود ؟ !

فأخرج « سيمون » الثلاث « روبلات » من جيبه وقال :
« ها هي ذى النقود ... لم يؤد « تريفنوف » ما عليه ... !
ووعدت زوجته بأنه سوف يدفع ... » فلم يهديء هذا من غضب
مترونا ... فهو لم يحضر الصوف ... بل أنه ألبس واحدا عازياً
توبه وآتى به إلى بيته ... فاخطفت النقود من يده لتضعها في مكان
أمين وقالت لزوجها ... « ليس عندي طعام ... وما يتقدورنا أن
نطمع كل سكير عازر في العالم ... ! »

— قلت كفى مترونا خير لك أن تسمى أي إنسان هذا — !
— « أمن الحكمة أن أنصت إلى سكير ؟ ! لقد كنت
أعرض عن الزواج بك لهذا ... ! »

حاول سيمون أن يخبر زوجته أنه لم يشرب إلا بالعشرين
« كوبك » ... وحاول أن يبصرها بالحالة التي وجد عليها صاحبه
الغريب ... بيد أن مترونا كانت تنطق بسرعة هائلة ... وتذكره
بأشياء مضت منذ عشرين عامًا ... وراحت تتحدث وتتحدث ،
وأخيراً أمسكت بسيمون وراحت تصيح :

« أعطني ثوبي ... أنه الوحيد الذي أمالكه ... ! وقد أمرته
لك كي تحضر صوف المدرعة ... ناولنيه أيها الكلب الأجرى ...
وليبيث بك الشيطان ! ! »

فأخذ سيمون يخلعه ... ثم ناوله إياها ... فألقته على رأسها
ذهبت بالمروج إلا أنها توقفت ... ! وقد جال في نفسها أن تعرف

مطبعة الرسالة

تقدم قريباً

الطبعة الثانية من كتاب :

في أصول الأدب

مخاضيرت ومقالات في الأدب العربي

بقلم الأستاذ

محمد الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

سكك حديد الحكومة المصرية

جداول مواعيد القطارات لفصل الشتاء سنة ١٩٤٦/١٩٤٧

لقد شرعت المصلحة في الاستعداد لإصدار طبعة الشتاء المقبلة من جداول مواعيد القطارات للتداول بين آلاف الجماهير وذلك اعتباراً من أول نوفمبر سنة ١٩٤٦

وفضلاً عن أهمية الإعلان في الجداول المذكورة فإن المصلحة تتقاضى مقابل النشر فيها أجراً زهيداً فالصفحة الكاملة بستة جنيهات ونصف الصفحة بأربعة جنيهات

فاغتنموا الفرصة وصارحوا من الآن إلى حيز ما يروكم من صفحات هذه الجداول نظراً إلى أن الإقبال على الإعلان فيها شديد

بالإدارة العامة بمحطة مصر

بقسم النشر والإعلانات

ولزيادة الاستعلام اتصلوا :